

## البَابُ السَّابِعُ

الحياة الروحية في خراسان

في القرنين الأول والثاني الهجريين

obeyikandi.com

## الفصل الأول

### سمات الحياة الروحية في خراسان

كانت القادسية - كما نعلم - الحادثة الكبرى الحاسمة في سقوط دولة فارس القديمة ، واندفع العرب - وهم يحملون رسالة الإسلام - في عهد عمر بن الخطاب إلى ما عرف - فيما بعد - باسم عجم العراق - وافتتحوه . . . واختطوا المدن فيه . ونحن نعلم أن من أهم هذه المدن الجديدة والتي بنيت على آثار مدن قديمة « المدائن » . وقد أتى المدائن الصحابي القديم سلمان الفارسي - وحذيفة بن يمان . ومن ثم أصبحت المدائن موطناً كبيراً لحركات روحية في الإسلام ، صدر البعض منها عن التشيع عامة ، والتشيع الغالي على وجه الخصوص . أما عن تشيع المدائن وزميلتها قم - فظاهر من إقامة سلمان وحذيفة وهما من أركان الشيعة فيها . ثم نرى أيضاً أن عبد الله بن سبأ في بعض الأقوال قد نوى إليها ، ثم نزلت فيها أيضاً قبيلة عبد قيس الشيعية ، وهي القبيلة التي احتضنت التشيع الغالي . ثم صارت المدائن موطناً للإسحاقية أتباع إسحق بن محمد النخعي الأحمر وكان لإسحاق كتاب في « التوحيد » ذهب فيه إلى قداسة علي . . . وقد انتشر الكتاب في المدائن في أوساط الشيعة الغالية ثم كانت المدائن موطن الحارثية . وهي الفرقة التي انفجرت حولها عبد الله بن معاوية بن جعفر (المتوفى ١٣٠هـ) . وكانت أيضاً من فرق الشيعة الغلاة . وقد خرجت من هذه الفرقة فكرة « النور » أي أن الله نور ، وأن هذا النور في عبد الله بن معاوية ، كما ابتدعت أيضاً أفكار التناسخ والأظلة الدور . كذلك ظهرت في المدائن فرقة الذمية ، وهي فرقة تفضل علياً على النبي ﷺ . . .

أود من هذا أن أقول إنه كانت في المدائن حركات روحية شيعية . . . كما كان في زميلاتها قم واصطخر . وقد شاركت الحركات الشيعية بلا شك في إقامة الحياة الروحية في الجزء الجنوبي من عجم العراق . لكن هل شارك غير الشيعة من المسلمين في هذه الحياة . لقد ظهر في المدائن عابد ، بل زاهد من أكبر زهاد المسلمين هو شعيب بن حرب (توفي عام ١٩٧هـ) وقد تتلمذ شعيب على سفيان الثوري وغيره من كبار المحدثين ، ثم نزل المدائن واعتزل بها ويقول ابن الجوزي : كان أحد المقردين بالزهد

والتعب (١) . أما الذهبي فيوثقه كمحدث فيقول : شعيب بن حرب المدائني ، فوثقه (٢) . « . وقد اعترل شعيب بالمدائن . . . وأقبل عليه الزهاد يأخذن عنه . وقد ذهبت إليه جماعة من تلامذته من العباد إلى المدائن - فراوه - وكان جلدأً وعظماً . . . ويعيش في كوخ بناه بيده وخبز له معلق بشرط ومطهرة . . . يأخذ كل ليلة رغيفاً يبله في المطهرة ويأكله . . . ونظر إليهم وقال : أتري هاهنا بعد لحمأً والله لأعملن في ذوبانه . . . حتى أدخل القبر ، وأنا عظام أتقعقع ، أريد أتسمن للودود والحيات . . . » . وقد سمع أحمد بن حنبل بهذا فقال : « شعيب بن حرب حمل على نفسه في الورع . . . » ، بل إنه يقول لعبد الله بن خبيق الزاهد الأنطاكي : « أكلت في عشرة أيام أكلة ، وشربت شربة » . فقد اتخذ الجوع أيضاً سنة له . . . كما كان يتخذ الوحدة قاعدة له ، بحيث سأل أحد أصدقائه - وقد جاءه إلى مكة حيث استقر آخر الأمر « ما جاء بك » فقال الرجل « حيث أؤنسك » فقال : جئت تونسني ، وأنا أعالج الوحدة منذ أربعين سنة ، وهو ينصح الحسن بن صالح الزاهد الكوفي الزيدي - وقد تلمذ عليه الحسن أيضاً « لا تجلس إلا مع أحد رجلين ، رجل جلست إليه يعلمك خيراً ، فتقبل منه ، أو رجل تعلمه خيراً ، فيقبل منك ، والثالث اهرب منه . والإسلام خير جليس ، بل إن دخلت القبر ومعك الإسلام ، فأبشر - » وفيما يروى عنه أحمد بن أبي الخوارى ، وقد صحبه أيضاً وأخذ عنه . . . أنه كان يرى أن آفة الدنيا الرياسة « من طلب الرياسة ، ناطحته الكباش . ومن رضى أن يكون ذنباً ، أبي الله إلا أن يجعله رأساً » وأراد للناس الكسب الحلال ، وأن يكسبوا عيشهم في طاعة الله ، ولذلك يذكره السرى بن المغلس السقطي الصوفي البغدادي فيقول : « أربعة كانوا في الدنيا ، أعملوا أنفسهم في طلب الحلال ، ولم يدخلوا أجوافهم إلا الحلال ، وهيب ابن الورد ، وشعيب بن حرب ، ويوسف بن أسباط وسليمان الخواص » كما ذكر حوادثه أيضاً بشر ابن الحارث الخافي . . .

وانتهى الأمر بشعيب بن حرب إلى مكة ، وهي سنة اتخذها بعض الزهاد كأمثال الفضل بن عياض ، كما سنرى بعد ، وكرهها البعض الآخر - كسفيان الثوري .  
وفي مكة عاش فقيراً . . . وكان يمشي في طرقاتها « وعليه جبة صوف رقيقة نظيفة . . . وهو حاف » وهو يبكي حتى تسيل دموعه على لحيته (٣) .

أود أن أنتهي من هذا إلى أن في الجزء الجنوبي من فارس ، كان هناك التشيع العادي ، والتشيع

(١) ابن الجوزي : صفة ج ٣ ص ٢ .

(٢) الذهبي : ميزان ج ٢ ص ١٧٦ .

(٣) ابن الجوزي : صفة ج ٣ ص ٢ - ٤ .

العالمى ، كما كان هناك التسنى . . . وكان الجميع يقيمون حياة روحية إسلامية . . .  
ولكن ماذا كان يحدث فى خراسان . وقد كانت بعيدة عن البصرة . وعن الكوفة ، كما كانت  
أشد بعداً عن المدينة ، وعن دمشق وعن غيرها من العواصم الإسلامية الكبرى .  
يذكر يا قوت خراسان فيقول « بلاد واسعة : بلاد واسعة حدودها مما يلي العراق ازاوار قصبه  
جوين وبهيق . وآخر حدودها ما يلي الهند - طخارستان وغزنة وسجستان وكرمان . وليس ذلك منها ،  
إنما هو أطراف حدودها . وتشتمل على أمهات من البلاد - منها نيسابور وهراة ومرو . وهى كانت  
قصبته ، وبلخ وطالقان ونيسا وأبيورد وسرخس - وما يتخلل ذلك من المدن التى دون نهر جيحون -  
ومن التمس من يدخل أعمال خوارزم فيها ، وبعد ما وراء النهر منها وليس الأمر كذلك (١) . ولكننا  
نرى أبا الحسن النيسابورى يقرر أن مدينة « بخارى من جملة مدن خراسان ، ولو أن نهر جيحون يقع  
بينها » (٢)

فهناك إذن اختلاف فى التحديد الجغرافى لخراسان . غير أننا نفضل أن نقول مع الدكتور كامل  
الشيبي - إن خراسان هى المنطقة التى تستغرق مجموع مدن بلخ ونيسابور ومرو والروز وبيروود ونسا . وهى  
المنطقة التى تقع فى الشمال الشرقى من إيران الحالية . وكان سكانها من الفرس وبعض الأتراك .  
وسرى أن عبد الله بن المبارك عالم خراسان الكبير وزاهدها كان . تركيا . وقد قاومت خراسان الفتح  
العربى أشد مقاومة ، ولم تفتح إلا فى عهد عثمان صلحا عام ( ٣٠ هـ ) . ولكنها عادت إلى الثورة ، ولم  
تستقر أمورها فى عهد الأمويين . وقاوم أهلها العرب أشد المقاومة . ولم يعتنقوا الإسلام بسهولة ، بل  
كانوا يعلنون الإسلام ، ثم يرتدون ، . . . وأخيراً استقر الإسلام فيهم ، وأخذت الأديان القديمة  
المتشعبة هناك تحطم يوماً بعد يوم . . . وكانت أهم هذه الأديان القديمة - أديان الفرس المتعددة -  
الزرادشتية والمانوية والديبانية والمرقونية والمزدكية . وسفرخ هذه المزدكية فراخاً هائلاً فى القرن الثانى  
الهجرى . . . أحياناً باسم الخرمية ، وأحياناً أخرى باسم الراوندية أو فرق من الراوندية وبخاصة  
الأبى مسلمية ، وانتشرت بيوت النار ، وبيوت النار هذه كانت عنواناً على هذه الأديان الفارسية  
الثانوية ، كما انتشرت أيضاً أديان الهند ، من برهية وبوذية . . . (٣) فانتشرت بيوت الأصنام .  
لست أود أن أعرض لهذه الأديان المختلفة - وقد تكلمت عنها بالتفصيل فى الجزأين الأول والثانى من  
نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام . ولقد قضى الإسلام على الجزء الأكبر من هذه الأديان ، ولكن بقيت

(١) باقوت الحموى : معجم البلدان ج ٧ ص ٣٥٠ .

(٢) أبو بكر محمد بن جعفر الزنشى : تاريخ بخارى . . . ص ٢٧ .

(٣) الزنشى : تاريخ بخارى : المقدمة ص ٩ .

منها جيوب خطيرة محتفية أطلت برأسها أحياناً : وأنزلت بالإسلام والمسلمين أفدح الأضرار . ولقد كثرت الأحاديث الموضوعة عن أهمية خراسان . وقد وضع الوضعون هذه الأحاديث - رواية عن سلمان . ومن أهمها « بالمشرق بقعة يقال لها خراسان . وثلاث مدن خراسان وهذه تزين يوم القيامة بالياقوت والمرجان ، ويصعد منها نور ، ويكون حول هذه المدن ملائكة كثيرة تسبح وتحمد وتكبر . ويؤتى بهذه المدن إلى العرصات ، بالعز والدلال كالعروس التي تزف إلى بيت زوجها . ويكون لكل مدينة من هذه المدن ، سبعون ألف علم ، وتحت كل علم سبعون ألف شهيد ، وشفاعة كل شهيد ينجو سبعون ألف موحد من المتكلمين بالفارسية ، وبكل ناحية من هذه المدن عن اليمن واليسار ، ومن الأمام والخلف ، طريق طولها عشرة أيام ، كلها يوم القيامة شهداء (١) . والحديث الآخر « خراسان كنانة الله إذا غضب على أحد ما هم بها » وحديث آخر « ما خرجت من خراسان راية في جاهلية وإسلام ، فردت ، حتى تبلغ منهاها . . . » وكانت كلها أحاديث موضوعة من دعاة العباسيين - انتظاراً للزحف الخراساني العباسي . وقد وضعت الأحاديث المتعددة عن خروج العباسيين منها . . . والرايات السود . . . والمهدى . . . وكل هذا من خراسان . وقد انتشرت هذه الأحاديث في أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني . وقد كانت أقدم حركة سرية في الإسلام ، وهي حركة أبي هاشم بن محمد بن الحنفية في خراسان . . . وحين أعلن خداهش « ارتداده عن الإسلام - باسم الإمام العباسي ، سرعان ما صدقه أتباع بني العباس . . . ولكن الإمام العباسي سرعان ما أعلن غضبه على خداهش ، وقتل خداهش وانتهى أمره . . . »

لم يكن من السهولة إذن بمكان تحويل الخراسانيين إلى الإسلام ، لقد دافعوا - كما رأى مختلف الباحثين - عن أديانهم القديمة ، كما دافعوا عن قوميتهم الفارسية ، واندفع ترك التار من أهل المنطقة في نفس تيار الفارسيين . كان هذا كله في زمن المقاومة - وهذا شيء طبيعي - ولكن حين تحولت المجموعة إلى الإسلام ، هل بقي في المجموعة الإسلامية الجديدة أضرار من أديانهم القديمة أو هل كان لهم تعبير معين عن مقاومة إيجابية أو سلبية تجاه الدين الجديد . ذهب براون المستشرق الإنجليزي المشهور إلى أن « التشيع والتصوف كانا من الأسلحة التي حارب بها الفرس العرب للقضاء عليهم » ونحن نعلم أن براون كان مستشرقاً سياسياً ينفذ سياسة إنجليزية أو صليبية معلومة كان غايتها القضاء على الروح الإسلامية في إيران ، وفصلها سياسياً عن المجموعة العربية ، وكان ضالماً مع حركة البائية للقضاء على المذهب الاثني عشري نفسه . ولكن نجد أن بعض الباحثين الإيرانيين المعاصرين يذهبون إلى نفس الأمر ، وليس الأمر كذلك على الإطلاق (٢) .

(٢) الدكتور الشبي : الصلة ج ١ ص ٣٤٧ - ٣٤٩ .

(١) الترشحي : تاريخ بخارى : ص ٣٩ .

إن الروح الإسلامية قد استقرت في خراسان استقرارها النهائي في المجموعة الكبرى من أهلها في أوائل القرن الثاني . حقاً . لقد تأثرت الحياة الروحية والعقلية الإسلامية في مدن خراسان بمن غيرها من المدن الإسلامية ، والسبب في هذا أنها لم تعاصر - كما قلنا الخلفاء الراشدين ، وهي على دين الإسلام ، فلم يرحل إليها صحابى كبير - ينشئ فيها تقاليد معينة . وقد لاحظت هذا في الموصل من قبل . ولكن حين تمكن الإسلام في قلوب الفرس عامة ، والخراسانيين خاصة ، ظهر على المسرح الإسلام العقلى والنقلى والروحى الموالى الكبار - وهم الذين أنشأوا فلسفة الإسلام الحقيقية . كان هناك المعتزلة - فلاسفة الإسلام على الحقيقة ، ومعظمهم من الفرس . وكان عملهم الأول الكبير - صوغ الإسلام فلسفياً تجاه فلسفات الأديان الأخرى ، وبخاصة المجوس - المانوية والمزدكية وغيرهما - ثم كان الكبار من أهل السنة والجماعة - وكانوا فلاسفة الإسلام الحقيقيين صاغوه في أكمل الصور - وهم أيضاً فرس - الباقلاقي - والفزالي والرازي . . . إلخ . ثم ظهر علماء النقل وعلماء الفقه . أبو حنيفة والبخارى . . . وهم أيضاً فرس . أما علماء الروح فكان الحسن البصرى وهو سيد القوم - فارسياً . ثم يأتي التشيع - وقد انتشر أولاً لدى المغاربة - وأقصد بالمغاربة هنا غرب خراسان - كانت الكوفة موطنه ، وكانت المدينة . وقام التشيع أولاً على يد عرب ، ثم شارك فيه العرب والعجم - في الكوفة - وكان في الكوفة المختارية - عربية - والكيسانية فارسية . كان الشعور الإسلامى واحداً - في الاثنين ، فانفقوا واختلّفوا فرساً وعرباً كمسلمين - لا كطوائف تنتمى إلى جنسيات مختلفة . . . أما أنه كانت هناك جيوب خفية ، حافظت على فارسيتها ، وضغنت على الإسلام أشد الضغن ، فلا شك في هذا ، ولكن هذه الجيوب كانت لدى العرب أيضاً ، حتى قضى عليها . ولقد وجد عبد الله بن مسعود بقايا دين مسيلمة في الكوفة . كما ستوجد هذه الطوائف في كل مكان وفي كل زمان .

. . . ثم إننا حين نؤرخ للحركة الروحية في خراسان ، نجد نفس الظاهرة التي وجدناها في الموصل من قبل ، وهي أن خراسان بدأت بدراسة الحديث ، وظهر منهم محدثون من أكبر محدثي الإسلام من أمثال عبد الله بن المبارك وإسحق بن راهوية ( ٢٣٨ ) ، ويحيى بن يحيى ( ٢٢٦ ) بل سيكون الحديث سمة مؤكدة للزهاد . وللزهاد المتجهين نحو التصوف من أمثال الفضل بن عياض وإبراهيم بن أدهم . وكان الحديث - عاصماً للزهاد - إلى أكبر حد - من انزلاقهم نحو الأفكار غير الإسلامية . ثم نجد أيضاً في خراسان - الزهد الصوفى يظهر مباشرة ، فلم تعان خراسان الزهد الإسلامى البسيط الأول . وقد لاحظ هذا بحق الدكتور كامل الشيبى<sup>(١)</sup> . والسبب واضح ، أن الإسلام لم يستقر في خراسان اللهم إلا في أواخر القرن الأول ، وكان الزهد الإسلامى البسيط قد انتهى أمره ، وحل محله الزهد

الصوفي ، ومع هذا نستطيع أن نجد في حياة بعض المحدثين من أهل خراسان آثاراً وبقية من هذا الزهد الإسلامي البسيط . ومن الأمثلة على هذا يحيى بن يحيى وإسحق بن راهويه وغيرهما .

غير أننا نجد في خراسان وفي فارس عامة - فكرة السياحة لدى الزهاد أكثر منها في بلد آخر من بلاد الإسلام . وإني على يقين من أن المستشرقين الأوربيين الخاقدين على الإسلام - سرعان ما يتلقفون مثل هذه الفكرة ، ويحاولون ردها إلى مصدر أجنبي ، وبخاصة المصدر الهندي . وسيضعونها في موازاة السائح الهندي العارى . والأمر أبسط من هذا بكثير . إن مصدر السياحة دعوة قرآنية - وقد ذكر القرآن التائبين والعابدين والسالمين والركع السجود . . . إلخ . ثم إن أول السالمين في الإسلام لم يكونوا زهاداً ، بل كانوا محدثين ، تفتيشاً وراء الحديث ، وتحريماً لموطنه ولصحته رواته . وقد فعلها سفيان الثوري أولاً ، ثم قام بها البخارى - صاحب الصحيح وهو خراساني - على نطاق واسع ، وكان أول سائح في النظرية الإسلامية الدينية - الفارسي القديم - سلمان وكان اتجاه سلمان - كما نعلم - من أصبهان إلى أرض الغرب ، حيث مهجر النبي الجديد ، وإشراقه الوحي الأخير . . . وكان لا بد للسالمين الفرس أن يخططوا نفس الطريق . . . وقد قام بأول سياحة له من أرض العجم ، ومن أصفهان بالذات ، بلد سلمان ، سائح أصبهاني هو محمد بن يوسف بن معدان الأصفهاني ( المتوفى سنة ١٨٤ هـ ) حقاً - لم يكن محمد بن يوسف بن معدان خراسانياً ، ولكنه أتى من أصبهان ، البلد الفارسي القديم ، وكان مثلاً لصفوية خراسان جميعاً بحيث كان عبد الله بن المبارك يدعوه « بعروس الزهاد »<sup>(١)</sup> وقد نشأ محمد بن يوسف الأصفهاني في أسرة غنية في خراسان ، وأخذ في تعلم الفقه والحديث ثم زهد في كل هذا . . . فدفن كتبه . - وهو يقول « هب أنك قاض ، فكان ماذا . هب أنك مفتي - فكان ماذا ، هب أنك محدث فكان ماذا » ثم تخلى عن أملاكه . وأخذ في التبعيد ، ثم بدأ سياحاته ، إلى عبادان ، والمصبصة ، ومكة ، وكان على صلوات بالفضيل بن عياض بل يقال إن الفضيل هو الذي كان يفتق عليه<sup>(٢)</sup> . وقد كان على صلوات أيضاً بعبد الله بن المبارك . وكان ابن المبارك يسعى لمقابله يقول أبو طالب المكي « وكان محمد بن يوسف الأصفهاني عالماً زاهداً . . . ومن الناس من كان يفضل على الثوري رحمها الله تعالى - إلا أنه كان يؤثر الخمول ، فلم يكن يعرفه إلا العلماء ، وكان من حسن رعايته وشدة يقظته ، يعمل في كل وقت أفضل ما يقدر عليه في ذلك الوقت . فلما طلبه ابن المبارك بالمصبصة قال له بعض من يعرف حاله : إن ذلك لا يكون في المصر إلا في أفضل موضع فيه . . . قال : فهو إذن في الجامع فطلبه ، فقيل له : إنه لا يقعد إلا في أفضل

(١) ابن الجوزي : صفة ج ٢ ص ٦٣ .

(٢) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٢٢٥ .

مكان . . . قال فطلبه عند الفقراء ، فإذا هو دس رأسه وأخمل نفسه مع المساكين . فكان عنده أن أفضل وطن في مصر الجامع ، لأنه يقال : إن الصلاة فيه بخمسين صلاة أو أفضل الأماكن موضع الفقراء من الجامع ، وأن أفضل الأحوال الخمول ، فلذلك أخمل نفسه - فيما بين الفقراء في الجوامع ليحوز فواضل الأعمال<sup>(١)</sup> . ويبدو أنه كان يرحل في مجموعة من أصحابه إذ يقول أبو نعيم « كان محمد ابن يوسف وأصحابه إذا استراحوا قاموا إلى الصلاة<sup>(٢)</sup> » وقد تتساءل من هم أصحابه . ويبدو أنه صحب أبا إسحق الفزاري ومحمد بن الحسين . أو بمعنى أدق كان محمد بن يونس من حلقة تتصل بإبراهيم بن أدهم . صدروا جميعاً - بعد سياحتهم - عن البصرة - ثم نزلوا الثغور - وقد مات هؤلاء جميعاً قبله . فكان يقول « ذهب فلان . . . وفلان وبقيت أنا أتردى في حشوش هذه الدنيا » . كانت السياحة - منذ خرج من أصفهان دأب محمد بن يوسف ، يمضى على السواحل - حتى مكة ، ثم يعود إما إلى المصيصة وإما إلى عبدان . وكان يعيش في درجة من الصمت . . . وكان مثله الأكبر « سفيان الثوري » فلما ذكر له رجل « متنطع » أو مبتدع قال « هلك المتنطعون . . . علم هذا ما جهل سفيان الثوري علمه ، علم هذا ما جهل مكحول علمه . . . علم هذا ما جهل سليمان بن موسى علمه . . . فالرجل إذن سائح وزاهد ، يعيش في مقام الصمت ، ولكن على طريقة الثوري تماماً . وكما كره سفيان الثوري لبس الصوف كرهه هو أيضاً ، فكان يلبس « القطن » وحين نهى هو سفيان الثوري عن التحديث ، امتنع وقال « نهاني محمد بن يوسف » كان للرجل إذن مقام كبير لدى المحدثين الزهاد ، فكان عبد الله بن المبارك « كالعاشق له » وكان سفيان يأتمر بأمره . وأخيراً . . . نرى أحمد ابن حنبل يذكره فيقول « . . . هذا الرجل الذي يكثر ذكره . . . علماً وقضلاً » .

كانت لمحات محمد بن يوسف في كراهية الدنيا تقرب من التصوف فكان يصرخ « الدنيا غنيمة الله . . . أو الهلكة ، والآخرة عفو الله . أو النار . ويردد :

ومر بدار المترفين وقل لهم ألا أين أرباب المدائن والقرى  
ومر بدار العابدين وقل لهم ألا قطع الموت التنصب والأذى

وكم كره الدنيا « لقد خاب من كان حظه من الله الدنيا » ويردد « خذ من دنياك القوت الذي لا بد لك منه ، وبادر القوت ، واستعد للموت . . . » ويطلب . . . قتل الأمل والإغراق في العمل . . . فلم يكن يتام شتاءً ولا صيفاً . وكره التجارة ونهى أخاه عنها .

(١) أبو طالب المكي : قوت ج ١ ص ٥٣٩ - ٥٤٠ .

(٢) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٢٢٧ .

(٣) المصدر السابق : ج ٨ ص ٢٢٩ .

ويقول لتاجر يبيع في الحرم « انظر . أن لا يراك الله ، وأنت تخدع الناس في حرمه فيمقتك » . . .  
 وأخيراً . . . إنه من أحبباء الله ، كره الناس ولقاءهم لحبه . فقال « من أحب الله ، أحب أن لا يعرفه  
 أحد » (١) .

تلك صورة موجزة لحياة الرجل أثرت في معاصره كما أثرت فيمن بعده غير أن تأثيرها الكبير إنما  
 يتضح في زهاد خراسان المشهورين : عبد الله بن المبارك والفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم .

(١) أبو نعيم : الحلية ج ٨ ص ٢٣٤ .

## الفصل الثاني

### البيئة الخراسانية والزهد

مدرسة عبد الله بن المبارك

لقد ذكرنا من قبل أن بيئة خراسان قبل الإسلام كانت بيئة فارسية بحتة - مع مجاورة للترك المنتشرين في أطرافها - وأضيف هنا أيضاً أن الثقافة الصينية كانت أيضاً منتشرة في تلك البلاد . . . وقد نبه الباحث العراقي الممتاز الدكتور كامل الشيبلي إلى وجود نساك في الجيش الفارسي الذي قاوم الفتح الإسلامي . ونحن لا ننكر أبداً كل هذا ، ولا أنكر وجود الفلسفة اليونانية في مركزها الكبير في جند يسابور . . . كانت بيئة خراسان بيئة « الغنوص » الغنوص على أشد ما يكون الغنوص . كما أننا لا ننكر واقعة تاريخية هامة وهي : أن مجلس التعليم الإسكندري - الطبي والفلسفي - انتقل إلى أنطاكية ثم منها إلى جنديسابور ومرو وحران - وبقى في كل منها سنوات طويلة - قبل أن ينتقل إلى بغداد . . . ولا بد أن يكون لكل هذا أثر في الحياة العقلية والروحية والفقهية الإسلامية . ولكن حدث هذا في الشام ، كما حدث في البصرة وفي الكوفة . كان هناك من يمثل الروح الإسلامي الخالص وهناك من يمثل الانجهايات الغنوصية والأجنبية - أو على الأقل من تأثر بها فالحنس البصري وأبو حبيب العجمي - وهما فارسانيان ، وفرقد السنجي - وهو أرمني كانوا يمثلون الروح الإسلامية أصدق تمثيل ، بينما كان هناك من الفرس ومن العرب من يلغون في الدنيا ويأخذون بروح الغنوص . ويتحينون الفرصة السانحة للانقضاض على الإسلام . وكان هؤلاء - غلاة الشيعة - في البصرة وفي الكوفة ، بل في المدينة نفسها . أما خراسان ، فلم تظهر فيها الآراء الناشئة - وكما لاحظ ياقوت - في معجم البلدان إلا متأخراً . . . حين جاءها رسل العباسيين ، فأثاروا كوا من الغنوص فيها . ولقد ظهر من البدء في خراسان مجموعة من المحدثين والمفسرين - كان البعض منهم يمثل الإسلام أدق تمثيل . من أمثال مقاتل بن حيان (توفي عام ١٥٠ هـ) - و«أبو بسطام التبطي البلخي الخراساني - كما يدعوه الذهبي . . . أحد الأعلام» . وكان عابداً كبير القدر . . . صاحب سنة وصدق . . . هرب أيام أبي مسلم الخراساني إلى كابل ، ودعا خلقاً إلى الإسلام ، فأسلموا<sup>(١)</sup> . والبعض الآخر - كمقاتل بن سليمان البلخي (١٥٠ هـ)

(١) الذهبي : ميزان ج ٤ ص ١٧١ / ١٧٢ .

كان يمثل في تفسيره - الإسلام - المتأثر بعوامل خارجية ، فأدخل التجسيم في قلب التفسير ، ووضع الأحاديث المجسمة التي انتشرت في العالم الإسلامي<sup>(١)</sup> .

وأعقب هؤلاء محدثون خلص من أمثال إبراهيم بن طهمان (توفي عام ١٦٣) وأبو عبيد قاسم بن سلام (توفي عام ٢٢٣هـ) ويحيى بن يحيى النيسابوري (توفي عام ٢٢٦) وإسحق بن راهويه (توفي عام ٢٣٨هـ) ومحمد بن رافع بن أبي يزيد أبو عبد الله النيسابوري القشيري (توفي عام ٢٤٥هـ) ومحمد ابن أسلم أبو الحسن الطوسي (٢٢٦هـ) وقد مثل هؤلاء - بجانب عنايتهم بالفقه والحديث - الزهد الإسلامي البسيط أو ما سمي في هذا العهد « بالورع » بل كان محمد بن أسلم من البكائين . فلم تكن خراسان إذن بدعاً بين البلاد والمناطق العربية الأخرى . سادها - ولو متأخراً - كل العوامل التي مرت بغيرها من المناطق . وقد يقال : لقد كان فيها النساك القرس الأقدمون ، من أتباع زرادشت وماني ومزدك . . . كما كانت قريبة من الهند ومدخلها . . . ولكن كان أيضاً في الكوفة وفي البصرة مختلف الثقافات ، وكذلك كان في الشام ، وفي مصر ، ولكن كان في خراسان ، كما كان في كل البلاد الأخرى حياة روحية إسلامية ، صدرت عن الإسلام وحده .

وأول المصطفين - فيما يقول مؤرخهم ابن الجوزي . . . هو أبو القاسم الضحاك بن مزاحم الهلالي (المتوفى عام ١٠٥هـ) وكان من أهل الكوفة ، ولكنه وقد إلى بلخ ، وقد حمل من الكوفة ، كما حمل من أختها البصرة « البكاء » . . . فكان إذا أمسى بكى . فقبل له : ما يبكيك . فيقول لا أدري ما سعد اليوم من عملي<sup>(٢)</sup> .

انتقل البكاء إذن في أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني إلى خراسان فالكوفة والبصرة كاتنا هي المصدر لأول الحياة الروحية . وسرى - فيما بعد - أن عبد الله بن المبارك وإبراهيم بن أدهم يأخذان طريقها أو رحلتها الأولى إلى عباد البصرة ، حيث يلتصقان منهم وفيهم حياة الروح . . . ولكن ما يلبث أن يظهر في « بلخ » وستكون بلخ - من دون مدن خراسان - بلد العبادة الأول ، وسيخرج منها الرواد الأول للتصوف - أقول - ظهر خراساني أصيل هو عطاء بن مسلم أو ابن أبي مسلم الخراساني (المتوفى عام ١٣٥هـ) وأعطى عطاء للخراسانيين فكرة قيام الليل . كان يحيى الليل كله صلاة ، فإذا ذهب من الليل ثلثة نادى - وهو في فسطاطه صحابته « قوموا فتوضأوا وصلوا ، فإن قيام هذا الليل وصيام هذا النهار ، أيسر من شرب الصنديد ومقطعات الحديد . . . الوحا . . . الوحا . . . النجا . . . النجا . . . ثم يقبل على صلاته . وكان يعظ أصحابه . . . يقول « إني لا أوصيكم

(١) الذهبي : ميزان ج ٤ ص ١٧٥/١٧٣ .

(٢) ابن الجوزي : صفة ج ٤ ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

بدنياكم أنتم بها مستوصون ، وأنتم عليها حراس . وإنما أوصيكم بآخرتكم ، فخذوا من دار الفناء لدار البقاء ، واجعلوا الدنيا كشيء فارقتموه ، فوالله لتفارقونها ، واجعلوا الموت كشيء ذقتموه ، فوالله لتذوقته ، واجعلوا الآخرة كشيء تركتموه ، فوالله لتتركها وهي دار الناس كلهم ، ليس من الناس أحد يخرج لسفر ، إلا أخذ له أهبه ، فمن أخذ لسفره الذي يصلحه ، اغتبط ، ومن خرج إلى سفر لم يأخذ له أهبه ، ندم ، فإذا ضحى لم يجد ظلاً ، وإذا ظمى لم يجد ماء يتروى به ، وإنما سفر الدنيا منقطع ، وأكيس الناس من قام بتجهز لسفر لا ينقطع « وهو هنا يشير إلى السفر إلى الرحلة - رحلة الآخرة - وسرى الزهاد من بعده - في خراسان - يتخذون سنة السياحة أو الرحلة - فيخرجون من الدنيا كلها بلا زاد - أملاً في سفر الآخرة الذي لا ينقطع ... »

وعطاء الخراساني يقيم مجالس الذكر ؛ وقد رأيناه يدعو في الليل - فيقول « مجالس الذكر ... هي مجالس الحلال والحرام » كما يدعو إلى السجود ... في كل بقعة من بقاع الكون « ما من عبد يسجد لله سجدة في بقعة من بقاع الأرض ، إلا شهدت له يوم القيامة ، وبكت عليه يوم يموت ... وصلاة الأولين هي فيما بين المغرب والعشاء ، فإنها ساعة الغفلة <sup>(١)</sup> . »

وكان عطاء الخراساني أول مثال حقيق للزهد لأهل خراسان .

ولقد كانت « السياحة » إذن هي أولى سمات الزهد الخراساني . وقد أعلنها عبد الله بن المبارك محدث خراسان الكبير حين قال « خرجت أنا وإبراهيم بن أدهم من خراسان ، ونحن ستون فتى نطلب العلم ، ما منهم آخذ غيري <sup>(٢)</sup> خرجوا جميعاً لطلب العلم ، وحدث عبد الله بن المبارك ، ثم ترهد ، وحدث إبراهيم بن أدهم أيضاً ثم ترهد - وسرى الفضيل بن عياض فعل نفس الشيء أيضاً . أما عبد الله بن المبارك ( المتوفى عام ١٨١ هـ ) فكانت أمه خوارزمية ، وأبوه تركي ، وكان أبوه عبداً لرجل من التجار من همدان من بني حنظلة ، ولذلك دعى عبد الله بن المبارك بمولى بني حنظلة . وإن هذا المولى الذي ولد - وأبوه عبداً لرجل من الرجال - أصبح فيما بعد محدث المشرق بل المشرق والمغرب ودعى بأمر المؤمنين الحقيقي وإمام المسلمين . بل يذكر أن هارون زار الرقة ... وحدث وقتها أن أقبل عبد الله بن المبارك من خراسان إلى البلدة نفسها ، فأنجفل الناس خلف عبد الله بن المبارك ، وتقطعت النعال ، وارتفعت الغبرة ، وأشرفت زوجة هارون الرشيد من برج من قصر الخشب - فلما رأت الناس ، قالت : ما هذا - قالوا : عالم من أهل خراسان قدم الرقة يقال له عبد الله بن المبارك . فقالت هذا والله - الملك - لا ملك هارون الذي لا يجمع الناس إلا بشرط وأعوان <sup>(٣)</sup> . »

(١) ابن الجوزي : صفة ج ٤ ص ١٢٥ ، ١٢٦ . (٢) أبو نعيم : حلية ج ٧ ص ٣٦٩ .

(٣) ابن الجوزي : صفة ج ٤ ص ١١٢ ، والخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ١٠ ص ١٥٦ .

وقد نتساءل : هل كان أخذ هذا العالم الخراساني للحديث ومهارته فيه نوعاً أيضاً من المقاومة ضد العرب والإسلام . هل كان تميزه في هذا العلم الإسلامي البحت أيضاً مقاومة سلبية ضد الإسلام ، كما يدعى براون ومن تابعه من الكتاب المسلمين وأنه كان لدى الفرس والترك وغيرهم من الأمم المغلوبة نزعة الثأر والانتقام من الإسلام ، فأخذوا التشيع كما اتخذوا التزهّد طريقين سلبين لمقاومة الإسلام . ولم يكن عبد الله بن المبارك سيد المحدثين في عصره فقط ، بل كان أيضاً مرابطاً ومجاهداً حارب أبناء جنسه من غير المسلمين ، ورباط في الثغور ، وكانت المرابطة والجهاد سنة العلماء الحقيقيين ، كما كانت سنة العباد والزهاد . وسرى إبراهيم بن أدهم يفعل نفس الشيء ، فهل كان في هذا مقاومة سلبية للإسلام ، أم فناء في الإسلام واستهلاك فيه . كان هم براون الحقيقي ، هو أن يتصيد أى فكرة يحاول بها فصل الفرس المحدثين عن العرب ، فوضع فكرته عن مقاومة الفرس المسلمين الأوائل للمسلمين خلال التصوف والتشيع ، متوهماً له أسساً منهجية وصيغاً سيكلوجية ، ويقوم خلال هذا كله بانتحال تحليل وتركيب خداعيين ، ودعوى سخيفة بأن الفرس عانوا الذل والاضطهاد تحت نير العرب المسلمين . وهانحن نرى عالماً خراسانياً تخضع له الجباه في القرن الثاني من الهجرة .

ونحن لا نؤرخ هنا لمكانة عبد الله بن المبارك في الحديث ، فقد أجمعت على هذه المكانة الكتب المختلفة ، ويذهب صاحب تاريخ بغداد إلى أن عبد الله بن المبارك كان من الربانيين في العلم ، الموصوفين بالحفظ ، ومن المذكورين بالزهد<sup>(١)</sup> . وذهب إلى هذا أيضاً جميع رجال طبقات المحدثين ولكننا نحاول أن نبين مشاركة هذا المحدث الكبير في الحياة الروحية الإسلامية .

كان عبد الله بن المبارك رجلاً واسع الثراء ، وكان يتاجر حتى في أثناء حجه . . . وقد عجب الفضيل بن عياض الزاهد الخراساني المشهور ونزيل مكة من هذا . فسأل عبد الله بن المبارك : أنت تأمرنا بالزهد والتعلل والمبالغة وتزأق بالبضائع من بلاد خراسان إلى البلد الحرام - كيف ذلك : فقال ابن المبارك : يا أبا علي : إنما أفعل ذلك لأصون به وجهي ، وأكرم به عرضي ، وأستعين به على طاعة ربي ، لا أرى لله حقاً إلا سارعت إليه ، حتى أقوم به . فقال له الفضيل : يا ابن المبارك ما أحسن ذا - إن تم ذا<sup>(٢)</sup> . بل إنه يقول مرة أخرى للفضيل بن عياض « لولاك وأصحابك ما تجرت » ويقول الفضيل نفسه « وكان ينفق على الفقراء في كل سنة مائة ألف درهم<sup>(٣)</sup> » أما أخبار إنفاقه على الفقراء

(١) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ١٠ ص ١٥٢ .

(٢) نفس المصدر : ج ١٠ ص ١٦٠ .

(٣) ابن الجوزي : صفة ج ٤ ص ١١٧ .

والزهاد ، فقد استفاضت بها كتب التاريخ .

وقد عاش الرجل في مرو عيشة محدث ، يمتلئ داره الكبير بالوافدين ، ثم حين انتقل إلى الكوفة ، رأى العزلة ، واعتبرها العافية وأكثر الجلوس في بيته ، فقيل له ألا تستوحش . قال : كيف أستوحش وأنا مع النبي ﷺ . ومن ثم بدأ يدعو إلى الوحدة « البعد من كثير من الناس ، أقرب إلى الله ، وفر من الناس كفرارك من أسد » بل يدعو إلى الخمول وعدم الاشتهار « كن محبا للخمول ، كراهية الشهرة ، ولا تظهر من نفسك أنك تحب الخمول ، فإن دعواك الزهد من نفسك ، هو خروجك من الزهد ، لأنك تجر إلى نفسك الثناء والمدحة » . وهنا بدأت مرحلة الزهد في حياة الرجل ، فأخذ يبكي « كان ابن المبارك إذا قرأ كتاب الرقاق ، فكانه يقرر منكورة من البكاء لا يجترئ أحد منا أن يدنونه أو يسأله عن شيء (١) - ودخل في مرتبة الخوف - فكان يقول للفضيل أكثركم علماً ينبغي أن يكون أشدكم خوفاً » . . . واستعد للموت ولما بعد الموت . ثم امتنع - كمادة الزاهد عن النوم ، كما كان صائم الدهر . وسئل ابن المبارك : من الناس ؟ قال العلماء ، ومن الملوك ؟ قال الزهاد . ومن السفلة : قال : من يعيشون بدينهم (٢) .

ولم ير علماً إلا علم الزهاد وهو يقول : « قد جمعت العلماء فليس فيما جمعت أحب إلى من علم الفضيل بن عياض (٣) » وكان يقول جمعنا العلم للدنيا ، فدلنا على ترك الدنيا « أى أنه أراد أن يتعلم الحديث والفقهاء لينشر ، فقاداه - بعد أن عرف الحقيقة إلى الزهد ، والخروج من الدنيا ، ورأى أنه لا بد من مجاهدة النفس على سلوك طريق الزهد « إن الصالحين فيما مضى كانت أنفسهم تواتبهم على الخير عفواً ، وإن أنفسنا لا تواتبنا إلا على كره ، ينبغي أن نكرهها (٤) » .

وأخيراً يعلن أن الغاية النهائية من الزهد هي المعرفة ، وقلاً يصل إليها أهل الدنيا « أهل الدنيا خرجوا من الدنيا قبل أن يتطعموا أطيب ما فيها . . . المعرفة بالله عز وجل (٥) » . عزت إذن المعرفة المباشرة الحدسية ، تذوق الله بدون حديث وبدون فقه . وأخيراً ، نسبت له معجزة نبي . وهي رد الأبصار فقد دعى لأعمى ، فرد الله بصره (٦) . وبهذا دخل عبد الله بن المبارك في قائمة الزهاد الكبار ، ولا عجب في هذا ، فقد أحبه هؤلاء جميعاً : الفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم وأبو إسحق

(١) نفس المصدر : ج ٤ ص ١١١ ، ١١٢ .

(٢) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ١٦٧ وابن الجوزي : صفة ج ٤ ص ١١٥ .

(٣) نفس المصدر : ج ٨ ص ١٦٨ .

(٤) ابن الجوزي : صفة ج ٢ ص ١٢٨ .

(٥) نفس المصدر : ج ٤ ص ١١٤ .

(٦) نفس المصدر : ج ٢ ص ١٢٠ .

الفزاري وعلي بن يكار وأحمد بن أبي الحواري كما أحبه المحدثون من الزهاد من أمثال الثوري . . .  
والمحدثون الورعون من أمثال الأوزاعي . كان عبد الله بن المبارك فريداً في نوعه حقاً ، وقد ترك آثاره  
الكبرى في الحديث ، كما احتل مكانة لدى الزهاد . وقد كان أقرب الناس إليه في مشربه هو الفضيل  
ابن عياض - وهو خراساني أيضاً . ولكنه تميز عن عبد الله بن المبارك بأنه خاض الزهد خوفاً كاملاً -  
كما سنرى بعد وترك ثروة ضخمة أنمت الحياة الروحية الإسلامية أشد نماء .

## الفصل الثالث

### الفضيل بن عياض ومدرسته الزاهدة

#### ١ - حياة الفضيل بن عياض :

إن الفضيل بن عياض ( المتوفى عام ١٨٧ ) هو صورة روحية ضخمة مليئة . وقد اعتبره السلمي في طبقات الصوفية : أول صوفية الإسلام على الإطلاق . ومع ما في هذا من تجاوز ، فازلنا في القرن الثاني - قرن الزهد الضارب نحو التصوف ، غير أن الرجل يمثل تطوراً كبيراً نحو تحول الزهد إلى تصوف يبحث في آفاق النفس الإنسانية ويضع مذاهب أخلاقية ونفسية ، ثم يرتقى شيئاً فشيئاً إلى مذهب فلسفي متكامل .

وقد اختلف الناس في أصل الفضيل بن عياض ، فبينما يذهب السلمي إلى أنه تميمي ، يربوعي ، خراساني من ناحية مرو<sup>(١)</sup> « ويؤيده ابن الجوزي » وأنه أحد بني يربوع ، يكنى أبا علي ، ولد بخراسان بكورة أبيورد ، وقدم الكوفة ، وهو كبير فسمع بها الحديث ، ثم تعبد ، وانتقل إلى مكة فمات بها ، يذهب القشيري إلى أنه « خراساني من ناحية مرو<sup>(٢)</sup> » ويرى عبد الله بن محمد بن الحارث أن الفضيل بن عياض « بخاري الأصل » ويحسم الأمر ابنه عبدة بن الفضيل بن عياض فيقول « أبي ، فضيل بن عياض بن مسعود بن بشر - يكنى بأبي علي ، من بني تميم ، من بني يربوع ، من أنفسهم . ولد بسمرقند ، ونشأ بأبيورد ، والأصل من الكوفة » وكذلك يذهب إلى هذا خادمه إبراهيم بن الأشعث<sup>(٣)</sup> .

أود أن أصل من هذا إلى أن الرجل كان عربياً ، ولكنه عاش باكورة حياته في خراسان ... في بيتها وجوها . وقد اختلف الباحثون قديماً وحديثاً حول المدرسة التي ينتمي إليها . فالبعض يعتبره من مدرسة خراسان - والبعض الآخر يعتبره من مدرسة مكة ، ويدرجة الدكتور كامل الشيبني في مدرسة الكوفة ، غير أنني أرى أنه من مدرسة خراسان . وأن سمانها تنبثق فيه . ثم افعلت قصة تزده .

(١) السلمي : طبقات ص ٨ .

(٢) القشيري : الرسالة ج ١ ص ٥٧ .

(٣) السلمي : طبقات ص ٦ - ٨ .

وسيفعل هذا دائماً مؤرخو التصوف في العالم الإسلامي ، يضعون دراما معينة للزاهد وللمتصوف المشهور ، يفتعلون فيها انحرافاً عن مجرى الحياة العادية للبشر . وقد سميت في علم النفس الاجتماعي الحديث « المنحنى الشخصي لحياة ما » وقد حاول ماسينيون تطبيقها - بطريقة مضحكة على حياة الحلاج ... وقد أراد ماسينيون أن يحقق بها نظرية دينية خاصة سيطرت عليه طوال حياته - وهي مسيحية الحلاج ، وأنه « مسيح حقيقي » في العالم الإسلامي<sup>(١)</sup> وسنرى في بحثنا عن الحلاج ، إلى أي حد تخبط ماسينيون وتسرع في استنتاجاته وتطبيقاته . وحاول من قبل جولد تسبير ، حتى بدون أن يعرف أصول نظرية المنحنى الشخصي لحياة ما ، أن يثبت بوذية إبراهيم بن أدهم ، ثم تابعه نيكلسون<sup>(٢)</sup> . وسنرى سريعاً وفي هذا الجزء تهافت كلام كل من جولد تسبير وتابعه نيكلسون .

أما هنا - فيما يخص الفضيل بن عياض - فقد افتعل مؤرخو التصوف - كما قلت - المنحنى الشخصي لحياة ما ... هذه الدراما الانحرافية عن حياته العادية . أما هذه الحياة العادية ، الحياة التي كان يسير عليها - فهو أنه كان عياراً وشاطراً ... وقاطع طريق ، يقول القشيري « كان الفضيل شاطراً ، يقطع الطريق بين أبيورد وسرخس ، وكان سبب توبته : أنه عشق جارية ، بينما هو يرتقى الجدران إليها ، سمع تالياً يتلو « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله . فقال : يارب : قد آن ، فرجع ... فأواه الليل إلى خربة ، فإذا فيها رقعة - أي جماعة - فقال بعضهم : نرتحل . وقال قوم : حتى نصبح . فإن فضيلاً على الطريق يقطع علينا ، فتاب الفضيل . وأمنهم وجاور الحرم حتى مات<sup>(٣)</sup> . تلك هي القصة الأسطورية التي ذكرها كثيرون من مؤرخي الصوفية عن سبب تزهّد الفضيل بن عياض . وقد كتبها الحريفيش بعد ذلك في صورة أكثر أسطورية على لسان الفضيل نفسه وأطلق على لسانه أيضاً أشعاراً ينم نفسها على تأخرها<sup>(٤)</sup> . ولقد تنبه الدكتور كامل الشبي في براعة نادرة إلى أسطورة قصة توبته فيرى أنها « هي التي تفضح أصله ، وهي أسطورة من جنس القصص التي تروى عن توبة الخراسانيين التي بعدها يبدأ زهدهم » - وبالرغم من أنه وضع الفضيل في سياق مدرسة الكوفة ، يتنبه إلى أن التوبة « جديدة على الزهد الكوفي ، بل لم نجد لها في الكوفة ، ولم يشر إليها أحد ، لأن الجو مشبع بروحه<sup>(٥)</sup> » فالمنحنى الشخصي والانحراف عن الحياة العادية ، سواء أكانت

(١) شخصيات قلقة في الإسلام : المنحنى الشخصي لحياة الحلاج ص ٦١ - ٦٢ .

(٢) جولد تسبير : العقيدة والشريعة ص ١٤٣ .

(٣) القشيري : الرسالة ج ١ ص ٥٧ ، ٥٨ .

(٤) الحريفيش : الروض المفاخر ص ١٥٢ .

(٥) الدكتور الشبي : ج ١ ص ٣٠٠ .

هذه الحياة - حياة فرد عادي - من جمهرة المسلمين - أم حياة قاطع طريق لم تكن موجودة ، كما سنرى أنها لم توجد في حياة إبراهيم بن أدهم ، وسرى افتعال قصة بوذيته ... إنها حكايات رويت لتدعيم طريق الزهد والتصوف ، ودعوة إلى التوبة . إن كانت ثمت ما نستطيع أن نستنتج من هذه الأسطورة ، هي تنبيه الأقدمين إلى الروح الخراسانية المبالغفة في الحساسية العاطفية - كما يقول كامل الشيبى .

ولد الفضيل بن عياض إذن في سمرقند ، وقضى نشأته الأولى بأبيورد ... وهناك تعلم الحديث ، ثم قام على عادة المحدثين بالرحلة أو كان لا بد أن يرحل إلى الكوفة موطن أجداده . فذهب إليها وهو كبيره وسمع الحديث بها . وبهذا حقق تقاليد خراسان : الحديث والرحلة . وانتهى الأمر به إلى التصبد والترهد . ولقد فعل هذا الكثير من قبل من زهاد الإسلام . وانتقل إلى الحرم وجاور هناك ... ولم يكن أهل الكوفة يفعلون هذا . وكان سفيان الثورى المحدث والزاهد المشهور ينهى عن الإقامة في مكة لغير الحج ، وذلك لأسباب نفسية وزهدية ، ولكن الشيخ الخراسانى ، أقبل إلى مكة ، وبها أقام وبها مات ، وكون حلقتة الكبرى فيها ، بل أصبح - فيما يقول « الذهبى - مؤرخ الإسلام وناقد الرجال - « شيخ الحرم ، وأحد الأثبات » مجمع على ثقته وجلاله . بل إن الذهبى يهاجم من جرح الفضيل بن عياض وهو قطبة بن العلاء ولا عبرة بما رواه أحمد بن أبى خيثمة قال : سمعت قطبة بن العلاء يقول : تركت حديث فضيل بن عياض ، لأنه روى أحاديث أزدى فيها على عثمان رضى الله عنه . فن قطبة ! وما قطبة حتى يجرح . وهو هالك ... روى الفضيل رحمه الله ما سمع ، فكان ماذا ؟ فالفضيل من مشايخ الإسلام ، والسلام<sup>(١)</sup> . كان الفضيل بن عياض إذن ( شيخ الحرم ) والعدل الثقة الثابت ، أتى من خراسان إلى مكة ، فكان أكبر جوهرة في تاريخها في القرن الثانى الهجرى ، ودره من جمال ، يتغنى في أوديتها . وفي جبالها ، وفي مواطن الوحى فيها بالتوبة ، بالزهد في الحياة ، بالبكاء ، بالخوف ، بالحلب الإلهى ... في أنقى صورة ... ثم بأوائل الفتوة .

## ٢- مفهوم التوبة عند الفضيل بن عياض :

كانت توبة الفضيل بن عياض أو فكرة التوبة عنده ذائعة لدى الصوفية من بعده . ولعل هذه التوبة الصارمة هي التي خلقت أسطورة حياته الأولى ، حياة قاطع الطريق العيار . ولكن التوبة عند فضيل بن عياض إنما تعود إلى العاطفة الخراسانية الجياشة ، وقد كانت سمة الخراسانيين . فأتى إلى مكة ، إلى الحرم إلى أستاذ الكعبة ، ليتعلق بها ، رمزاً على توبة كل مسلم من ذنوبه وآثامه . أما هو فقد

(١) الذهبى : ميزان الاعتدال ج ٣ ص ٣٦١ .

أتى ليتوب عن الحياة كلها . وبقى في مكة ، « شيخ الحرم » ليعلم المسلمين في عصره ، وبعد عصره أسرار التوبة كلها .

وقد بدأ « شيخ الحرم » من فكرة التوبة الإسلامية التقليدية ، فنادى في المسلمين في الحرم : ما من ليلة اختلط ظلامها ، وأرخت الليل سربال سترها ، إلا نادى الجليل جل جلاله ، من بطنان عرشه : أنا الجواد ومن مثلي أجود على الخلائق ، والخلائق بي عاصون ، وأنا لهم مراقب ، أكلوهم في مضاجعهم كأنهم لم يعصوني ، وأتولى حفظهم كأنهم لم يذنبوا ، من بيني وبينهم ... أجود بالفضل على العاصي ، وأفضل على المسيء ، من ذا الذي دعاني ، فلم أسمع إليه ، ومن ذا الذي سألتني فلم أعطه ، من ذا الذي أناخ بيأبي ونحيته ، أنا الفضل ومعنى الفضل ، أنا الجود ومعنى الجود ، أنا الكرم ومعنى الكرم ، ومن كرمي أن أغفر للعاصي بعد المعاصي ، ومن كرمي أن أعطى التائب كأنه لم يعصني ، فأين عني تهرب الخلائق ، وأين عن بابي يتنحي العاصون ... فيابؤس القانطين من رحمتي ، وياشقوة من عصافي وتعدي حدودي أين التائبون من أمة محمد؟<sup>(١)</sup> والتوبة هنا في البيت الحرام « فاحذروا تذكر الدينار والدرهم وأنت حول البيت ، إنما كان يأتيه التائب والمستجير » . ... فالتوبة إذن هي طريق العبادة ، وهي متصلة بالحزن ، بل « كل حزن يبني الإحزن التائب »<sup>(٢)</sup> .

ولكن ما تلبث التوبة أن تأخذ معنى آخر عنده ، فتكون هي التوبة عن الدنيا كلها ، إننا موتى فما قيمة الحياة إذن . إنه ينظر إلى أهله فيقول « انظروا إلى وجوه موتى » ثم إننا نكلى ، فعلام إذن تتراحم على الطعام ، اللهم إلا ما يقيم الأود - وهو يقول عن نفسه لابن أخيه « إن النكلى لا تجد طعم ما تأكل »<sup>(٣)</sup> .

وتاب عن « الحديث » « وإني لأسمع صوت أهل الحديث ، فيأخذني البول فرقاً منهم » ويقول لهم وهو المحدث الثقة « لم تكروهني على أمر تعلمون أتى كاره له ، لو أتى أعلم إذا دفعت ردائي هذا لكم ، ذهبتم عني ، لدفعته إليكم »<sup>(٤)</sup> ورأى الفضيل بعض المحدثين يضحكون ويمزحون فقال : مهلا - يا ورثة الأنبياء ، إنكم أئمة يقتدى بكم . ويقول « لو أنك تطلب مني الدراهم ، كان أحب إلي من أن تطلب مني الأحاديث » ونهى الفضيل عبد الله بن المبارك وسفيان بن عيينة عن التحدث بل إنه يأخذ بيد سفيان بن عيينة فيقول له « إن كنت تظن أنه بقى على وجه الأرض شرمي ومنك ، فبش

(١) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٩٣ .

(٢) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ١٠١ .

(٣) نفس المصدر : ج ٨ ص ٩٣ .

(٤) نفس المصدر : ج ٨ ص ٩٤ / ٩٥ .

ماتظن»<sup>(١)</sup> . ويقول لشعيب بن حرب وهو يطوف بالبيت «لوشفع في وفيك أهل السماء ، كنا اهلا أن لايشفع منا»<sup>(٢)</sup> ثم كره القراءة ولعنهم أشد اللعن . «تباعد من القراء فإنهم إن أحبوك مدحوك بما ليس فيك ... وإن أبغضوك شهدوا عليك ، وقبل منهم»<sup>(٣)</sup> .

ويقسم الفضيل العلماء إلى قسمين : عالم دنيا وعالم آخرة ، فعالم الدنيا منشور علمه ، وعالم الآخرة مستور علمه ... «فاتبعوا عالم الآخرة ، واحذروا عالم الدنيا ، لا يصدكم يسكره ثم تلا هذه الآية : إن كثيراً من الأخبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل» . ويفسر الأخبار بالعلماء والرهبان بالعباد<sup>(٤)</sup> . ثم يقرر : إن كثيراً من علمائكم زيه أشبه بزى كسرى وقبصر منه لمحمد ﷺ . إن عمداً لم يضع لبنة على لبنة ، ولا قصبة على قصبة ، ولكن رفع له علم ، فسمحوا إليه ... ولذلك احتقر الفضيل العلماء ... إن المراد بالعلم الحكمة ، ولكن هؤلاء العلماء أرادوا بعلم الدنيا . ولذلك لم يكن العلماء ورثة الأنبياء عنده «إنما الحكماء ورثة الأنبياء»<sup>(٥)</sup> . ثم كره هؤلاء الذين يمشون في لباس الصوف ، مدعين التزهّد والحكمة ، وهو يخرج من المسجد الحرام فيقول «وددت أنى لم أركم ولم ترونى ، أترونى سلمت منكم ، أن أكون ترمالكم حيث رأيتكم وتراءيتم لى . لأن أحلف عشراً أنى مرأتى وأنى مخادع أحب إلى من أن أحلف واحدة أنى لست كذلك ، لقد أيقن أن لباس الصوف مراء واشتار فكرهه . وهو يقول : «ترينت لهم بالصوف ، ولم ترهم يرفعون لك رأساً ، ترينت لهم بالقرآن ، فلم ترهم يرفعون لك رأساً ، ترينت لهم بشيء بعد شيء ، كل ذلك إنما هو لحب الدنيا»<sup>(٦)</sup> . وكم كان ينهى عن الشهرة ويوصى بالإخفاء «أخف مكانك ، لا تعرف ، فتكرم بعملك ، واخزن لسانك إلا من خير» . وينتهى به الأمر إلى التوبة عن الدنيا - كلها - وهذا حلال التوبة عندى ... لو أن الدنيا بخذا فبرها عرضت على حلالا ، لا أحاسب بها فى الآخرة ، لنكت أتقذرها كما يتقذّر أحدكم الخيفة ، إذ مر بها أن تصيب ثوبه<sup>(٧)</sup> بل تمنى أن لم يكن قد خلق «والله لأن أكون هذا التراب أو هذا الحائط ، أحب إلى من أن أكون فى مسلخ أفضل أهل الأرض اليوم ، وما يسرنى أن أعرف حق معرفته إذا لطاش عقلى» ، ويتمنى مرة أخرى أن يعيش كلباً ويموت كلباً ، ولا يرى القيامة . ولقد أفرغته فكرة

(١) نفس المصدر : ج ٨ ص ١٠١ .

(٢) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٩٠ .

(٣) السلى : طبقات ص ١١ .

(٤) أبو طالب المكي : قوت القلوب ج ١ ص ٢٨٧ .

(٥) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٩٢ .

(٦) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٩٨ .

(٧) نفس المصدر : ج ٨ ص ٨٩ والقشيري : الرسالة ج ١ ص ٥٨ .

القيامة أشد الفزع فتمنى - وهو الذى تاب عن الدنيا كلها - ألا يكون . وعجبا - أنه كان يشوف فى الحرم إلى اللاشبية ، إلى العدم المطلق . . . كانت المنح الإلهية تتوارد إليه ، وهو يخشى « ما يسرفى أن أعرف هذا الأمر حق معرفته ، إذا لطاش عقلى ، ولم أنضع بشيء » . وتطلب اللاشبية « ما أغبط ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلأ ، يعان القيامة وأهوالها ، ما أغبط إلا من لم يكن شيئاً <sup>(١)</sup> . ثم يقرأ « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ، ونبلو أخباركم . . . وجعل يصيح فى دلال « ونبلوا أخباركم ، ونبلوا أخبارنا . إن بلوت أخبارنا فضحتنا ، وهتكت أстарنا ، إنك إن بلوت أخبارنا ، أهلكتنا وعذبتنا <sup>(٢)</sup> . وبتدفع فى البكاء .

### ٣- الدنيا عند الفضيل بن عياض :

لقد دفعت التوبة عند الفضيل بن عياض إلى تصوير الدنيا ، تصويراً صوفياً دقيقاً وهو يمثلها بدار اشتراها صديق له فهمي « تعرف بدار الغرور ، حد منها فى زقاق الفناء إلى عسكر الهالكين . ويجمع هذه الدور حدود أربعة هى الحد الأول : ينتهى منها إلى دواعى العاهات ، والحد الثانى ينتهى إلى دواعى المصيبات ، والحد الثالث ينتهى فيها إلى دواعى الآفات ، والحد الرابع إلى الشهوات : إلى الهوى المردى والشيطان المغوى « وفيه يشرع باب هذه الدار على الخروج من عز الطاعة إلى الدخول فى ذل الطلب « . ثم يأتى الموت . . . لقد أبلى أجسام الملوك من قبل ، وسلب نفوس الجبابرة ، وأزال ملك الفراعنة والأكاسرة والقياصرة . وأشخصهم إلى موقف العرض العظيم . ويرى الفضيل بن عياض أن هذه الصرخات القلبية قد لا تنفذ إلى أعماق سامعيه فيلجأ إلى العقل ، إن العقل يؤيد ما يذهب إليه القلب فى معرفة الدنيا « يشهد على ذلك العقل ، إذا خرج من أسر الهوى ، ونظر بالعينين إلى زوال الدنيا ، وسمع صارخ الزهد عن عرصاتها . ما آمن الحق لدى عينين . إن الدنيا أحد اليومين « . ومن العجب أن يلجأ زاهد متوصف إلى شاهد العقل ، وقد كانوا يؤمنون . . . بشواهد القلب . ولكنه كان يرى علماء المسلمين يتزاحمون على أبواب الملوك . لقد وقفوا على باب هارون الرشيد وأخضعوا له هاماتهم « ما لكم وللملوك « . ما أعظم منتم عليكم ، قد تركوا لكم طريق الآخرة ، فاركبوا طريق الآخرة ، ولكن لا ترضون . تبعونهم بالدنيا ، ثم تراحمونهم على الدنيا ، ما ينبغى لعالم أن يفعل هذا <sup>(٣)</sup> . « وما هو يعظ سفيان بن عيينة المحدث المشهور فيقول له « كنتم معشر العلماء سرج

(١) أبو نعيم : حلية : ج ٨ ص ٩٠ .

(٢) أبو نعيم : حلية الأولياء ج ٨ ص ١١١ .

(٣) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ١٠٢ .

البلاد ، يستضاء بكم ، فصرتم ظلمة ، وكنتم نجوماً يبتدى بكم ، فصرتم حيرة ، ثم لا يستحي أحدكم أن يأخذ مال هؤلاء الظلمة ، ثم يسند ظهره يقول « حدثنا فلان عن فلان » . بل إنه يرى أن « طلب الدنيا بطليل ومزمار أحب من طلبها بالعبادة »<sup>(١)</sup> . ويقرر أنه لا ينبغي لحامل القرآن ، أن يكون له إلى الخلق حاجة ، لا إلى الخلفاء ، فمن دونهم « ينبغي أن تكون حوائج الخلق كلهم إليه »<sup>(٢)</sup> . ولقد وقف هو نفسه من هارون الرشيد حين أدخل على الرشيد مرة ، وسعى إليه الرشيد مرة ، موقف « شيخ الحرم » ، « شيخ الزهاد » يعظه أشد الوعظ ، ثم يرفض هداياه . بل يطفى السراج ، حتى يخرج أمير المؤمنين من بيته<sup>(٣)</sup> .

#### ٤ - البكاء والحزن :

كان الفضيل أحد البكائين الكبار في الإسلام . . . يقول تلميذه إبراهيم بن الأشعث ، ما رأيت أحداً كان الله في صدره أعظم من الفضيل « الله في صدره » ما أعجب تعبيرات هؤلاء الصوفية الأوائل ، إنهم يمهدون السبيل ، خلال امتلائهم بالفكرة الإلهية ، إلى الحلول . لم يقصد الفضيل أو إبراهيم بن الأشعث هذا . ولكن سينتهى المذهب إلى هذا في القرنين الثالث والرابع الهجريين ، وحين تتضح فكرة الحب في نسق وجودي . وسينادي الصوفي حيثئذ : رأيتك في صدري وفي قلبي . . . أنا أنت . ولكن كان العاصم الأكبر لزهاد القرن الثاني الهجري - الضارين نحو التصوف - هو الخوف ، فكانوا يبكون بكاء الخائفين ، وكانوا يخشون لقاء الله ، بينما حل الحب والاطمئنان إلى الحبيب لدى الخلاج ومدرسته محل الخوف ، فذهب بهم الوله إلى رؤيته فيهم ، فتأهوا وحاروا ، وزادوا فيه حيراناً وهياناً ، فقالوا بأنهم هو ، وهو هم .

كان الفضيل من الفريق الأول ، إذا ذكر الله أو سمع القرآن ، ظهر به الخوف والحزن ، وفاضت عيناه وبكى . أو كما نقل عنه ، كان دائم الحزن ، شديد الفكرة « رأى الله في كل عمله ، وعلمه وأخذه وإعطائه ومنعه وبذله وبغضه وحبه وخصاله كلها »<sup>(٤)</sup> . ولقد سأله الناس « مالنا لانرى خائفاً ؟ فقال : لو كنتم خائفين ، لرأيتم الخائفين . إن الخائف لا يراه إلا الخائفون . وإن الشكلى هي التي تحب أن ترى الشكلى »<sup>(٥)</sup> . ولقد كان الفضيل يرى الحزن نعمة من الله ودليلاً على حب الله للعبد « إذا أحب

(١) ابن الجوزي : صفة ج ٢ ص ١٣٧ .

(٢) السلمي : طبقات الصوفية ص ١٠ .

(٣) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ١٠٥ ، ١٠٨ .

(٤) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٨٤ .

(٥) القشيري : الرسالة ج ١ ص ٣٠٨ .

الله عبداً، أكثر نجمة، وإذا أبغض الله عبداً وسع عليه ذنياه. وحزن الدنيا يذهب بهم الآخرة، وفرح الدنيا للدنيا يذهب بحلاوة العبادة» وقد قال عبد الله بن المبارك «إذا مات الفضيل ذهب الحزن من الدنيا»<sup>(١)</sup>. وكذلك ذهب أيضاً وكيع بن الجراح<sup>(٢)</sup> ولقد كان الفضيل نفسه، يرى أنه لم يعد هناك خائف في هذه الدنيا. يقول إذا قيل لك: تخاف الله، فاسكت. لأنك إن قلت لا. كفرت. وإن قلت نعم: فليس وصفك وصف من تخاف<sup>(٣)</sup> ومكان الحزن عند الفضيل هو القلب. ينبئ أن يفرغ من كل شيء سوى الحزن<sup>(٤)</sup> أما البكاء، فكان سنة الفضيل بن عياض «وكان هو وسفيان الثوري يتقابلان، ويتذاكران. ثم يبكيان سوياً... وأتى منصور بن عمار الواعظ البغدادي، إلى البيت الحرام ووعظ فغشى على الفضيل بن عياض... وعلى عرفة والناس تدعو، والبكاء يحول بينه وبين الدعاء، ثم يصرخ في المسلمين «واسوأته»، وافضحته. وإن عفوت<sup>(٥)</sup>.

وتأتى شمانة العابدة الإبلية المشهورة إلى البيت الحرام، ويذهب إليها «شيخ الحرم» يطلب منها أن تدعو الله له بدعاء. فتقول له «يا فضيل: أما بينك وبين الله، ما إن دعوته استجاب. قال: فشقق الفضيل شهقة، فخر مغشياً عليه<sup>(٦)</sup>.

وكان يخرج في الجنائز يعظ ويذكر ويبكى حتى لكأنه يودع أصحابه ذاهب إلى الآخرة، حتى يبلغ المقابر، فكأنه بين الموتى، جلس من الحزن والبكاء حتى يقوم، ولكأنه رجع من الآخرة مجرماً عنها.

#### ٥- الزهد:

حدد الفضيل الزهد في الدنيا بأنه هو «القناعة» ويشرح أبو طالب المكي هذا فيقول «فكانت الدنيا عنده الشبع وأكل الشهوات<sup>(٧)</sup> ولكن أبا نعيم يورد له أقوالاً في الزهد أدق - «لا يسلم قلبك حتى لا تبالى من كل الدنيا» أى أن يسلم قلبك من كل ما في الدنيا، فلا يأبه بك أحد: فالزهد إذن هو «القنع» وهو «الغنى الحق»... ولا يصل الإنسان إلى الإيمان حتى يزهد في الدنيا<sup>(٨)</sup>. وأخيراً

(١) أبو نعيم: حلية ج ٨ ص ٨٧.

(٢) القشيري: الرسالة ج ١ ص ٣٣٠.

(٣) أبو طالب المكي: القوت ج ١ ص ٤٥٨.

(٤) حلية: ج ٨ ص ١٠١.

(٥) ابن الجوزي: صفة ج ٢ ص ١٣٥.

(٦) أبو نعيم: حلية ج ٨ ص ١١٣.

(٧) أبو طالب: القوت ج ١ ص ٥١١، ٥٤٢.

(٨) أبو نعيم: حلية ج ٨ ص ٩٤.

« جعل الخير كله في باب ، وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا<sup>(١)</sup> وجعل الشرك كله في بيت ، وجعل مفتاحه الرغبة في الدنيا<sup>(٢)</sup> . وأهم عناصر الزهد هو الزهد في الناس « عامة الزهد في الناس ، يعني إذا لم يجب ثناء الناس عليه ، ولم يبالي بدمتهم<sup>(٣)</sup> ولذلك نهى عن الاشتهار « إن قدرت أن لا تعرف ، فافعل ، وما عليك إن لم يثن عليك وما عليك أن تكون مذموماً عند الناس ، إذا كنت عند الله محموداً » ولا يمنع الزهد في الناس ، من مؤاخاة بعضهم في حب الله ، « نظر الأخ إلى وجه أخيه على المودة والرحمة عبادة » ولكن لا تصح المحبة في الله إلا بشروط الرحمة في الاجتماع ، والخلطة عند الافتراق بظهور التضحية واجتذاب الغيبة ، وتعام الوفاء ، ووجود الأُنس ، وفقد الجفاء ، وارتفاع الرحمة ، ووجد الانبساط ، وزال الاحتشام « وإذا وقعت العيبة ، ارتفعت الأخوة<sup>(٤)</sup> » . والعنصر الثاني الهام من عناصر الزهد هو الزهد في الرياسة ، وهي آفة الناس عنده « نقل الصخور من الجبال أيسر من إزالة رياسة قد ثبتت في قلب جاهل<sup>(٥)</sup> » .

#### ٦- التعبيرات الصوفية : أو المذهب الصوفي :

وامتلاً تراث الفضيل بن عياض بالتعبيرات الصوفية الرائعة ، ولو وصلت إلينا أقواله كاملة ، لكان من الممكن إقامة مذهب صوفي للإجل ، لقد خاض الرجل في علم إرادة النفس ، وترك فيها صوراً جميلة . ولم يعد طريق الله عنده مجرد طقوس وحركات . بل إن الجواهر الطريق إنما هو طريق إرادة النفس وإصلاحها « لم يدرك عندنا - من أدرك بكثرة صيام ولا صلاة ، وإنما أدرك بسخاء الأنفس وسلامة الصدر ، والنصح للأمة<sup>(٦)</sup> » وعجباً أن يعلن الفضيل هذا في القرن الثاني الهجري - والفقهاء له بالمرصاد ، والدين في نظرهم صيام وصلاة ومعاملات . ثم يقرر أن الزهد ليس هو في الحركات وإنما « أصل الزهد - الرضا عن الله ، وأحق الناس بالرضا عن الله ، أهل المعرفة بالله<sup>(٧)</sup> . إنه يتكلم هنا عن « أهل المعرفة » ولم تصل إلينا نصوص أخرى توضح لنا حقيقة المعرفة عنده . ثم يتكلم الرجل عن « الهروب إلى الله<sup>(٨)</sup> » ، والأُنس به « طوي لمن استوحش من الناس ، وأنس

(١) نفس المصدر : ج ٨ ص ٩١ ، والسلمى طبقات ص ١٣ .

(٢) أبو طالب : القوت ج ١ ص ٥٢٣ .

(٣) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٨٨ .

(٤) أبو طالب : القوت ج ٢ ص ٤٤٩ - ٤٥٠ .

(٥) أبو طالب : قوت ج ١ ص ٥٤١ .

(٦) السلمى : الطبقات ص ١١ ، وأبو نعيم : حلية ج ٨ ص ١٠٤ .

(٧) نفس المصدر :

(٨) أبو نعيم : الحلية ج ٨ ص ٩٧ .

بربه ، ثم بكى على خطيئته<sup>(١)</sup> . « ولكن أى خطيئة تبقى آثارها ، حين يحل الرضا القلب » درجة الرضا عن الله عز وجل ، ودرجة المقرين ليس بينهم وبين الله إلا روح وريحان<sup>(٢)</sup> . « هو إذن من الروحانيين الذين يعاينون الآخرة ولا شك أنه عرف « الروحانية » من الكوفة ، ثم كان هو أيضاً صديقاً لروحاني كبير ، وهو سفيان الثوري . ثم انتهى إلى ترديد نغمت الحب الإلهي على شرفات مكة وعرصاتها وجبالها « وعزته ، لو أدخلني النار ، فصرت فيها ما أيست<sup>(٣)</sup> . « لقد قسم الله المحبة<sup>(٤)</sup> ، وكانت قسمته . وإن الله ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا فيقول : « من ادعى محبتي إذا جنه الليل ، نام عنى كل حبيب يحب خلوة حبيبه ، ها أنذا مطلع على أحبائي ، إذا جنهم الليل ، مثلت نفسي بين أعينهم ، فخطبوني على المشاهدة ، وحكمتوني على حضوري ، غداً أقر أعين أحبائي في جنتي<sup>(٥)</sup> ، وأثر رابعة العدوية وحبا الإلهي واضح فيه تماماً . بل إنه يذهب في الدلال وهو في مرضه فيقول « ارحمني بحبي إياك فليس شيء أحب إلى منك<sup>(٦)</sup> » وهو يتكلم عن آخر مراحل الحب ، وامتلائه - حين يسأل : متى يبلغ الرجل غايته من حب الله ؟ ويجيب الفضيل « إذا كان عطاؤه ومنعه إياك عندك سواء ، فقد بلغت الغاية من حبه<sup>(٧)</sup> . وأحياناً يعتبر الرضا هو استواء العطاء والمنع عند العبد . وحين وصل هو إلى الغاية من حبه ، كان في القمة الأخيرة من حياته الصوفية . فلجأ إلى جبال مكة ، وخرج مجموعة من تلامذته إلى رأس الجبل ، فلم يجدوه . فجلسوا وقرأوا القرآن ، وخرج عليهم من شعب لم يروه . وصاح فيهم : أخرجتموني من منزلي ، ومنعتموني الصلاة والطواف ، أما أنكم لو أطعتم الله ، ثم شتمتم أن تزول الجبال معكم زالت . ثم دق الجبل بيده فأرأوا الجبال اهتزت وتحركت<sup>(٨)</sup> ، يشبه قول من قال « إن من أطاع الله ، أطاعه كل شيء ، ومن خاف من الله خاف منه كل شيء<sup>(٩)</sup> » فما بالك - وهو قد أحب الله .

(١) السلمي : طبقات ص ١٤ ، وأبو نعم : حلية ج ٨ ص ١٠٨ .

(٢) أبو نعم : حلية ج ٨ ص ٩٧ .

(٣) أبو نعم : حلية ج ٨ ص ٨٨ .

(٤) نفس المصدر : ج ٨ ص ٩٩ .

(٥) نفس المصدر : ج ٨ ص ٩٨ - ١٠٠ .

(٦) نفس المصدر : ج ٨ ص ١٠٩ .

(٧) نفس المصدر : ج ٨ ص ١١٣ .

(٨) أبو طالب : قوت ج ٢ ص ٩٢ .

(٩) أبو طالب المكي : قوت ج ٢ ص ٨١ .

## ٧- الفتوة والملازمة عند الفضيل بن عياض :

لست أريد أن أعرض هنا «للفتوة» نشأتها وتطورها ، معناها الديني ومعناها غير الديني . ولقد كثرت الأبحاث في موضوع الفتوة الإسلامية وصلاتها بالفروسيّة المسيحية . ثم نشر المرحوم الدكتور عفيبي كتابه «الملازمة والصوفية وأهل الفتوة» ، وحاول أن يلقى أضواء جديدة على تلك المفهومات الثلاث «الفتوة» و«الملازمة» و«الصوفية» وأن يبين الصلات بينها ، وقد نجح إلى أكبر حد في معالجة هذا الموضوع الجديد ، وأعقبه الدكتور كامل مصطفى الشبيبي ، فعرض للفتوة في كتابه «الصلة بين التصوف والتشيع» ، وبين أصلها الكوفي ، وصلتها بالتشيع . وانتهى إلى أنها اتصلت بعلى . وكان على فتي المسلمين جميعاً بلا جدال . ولكن الدكتور كامل مصطفى الشبيبي حاول ما وسعه الجهد أن يثبت أن نشأة الفتوة - كنظام - إنما بدأ في الكوفة ، وتطور عنها ، وأن ازدهار الفتوة في الكوفة إنما كان بتأثير كوفي - سواء بالأخذ عنها ، أو بتخلل عناصر كوفية في البيئة الخراسانية اختلطت بها وامتزجت ، وعنها نشأت الفتوة . ثم ظهر أيضاً - وبعد ذلك كتاب «الفتوة» لابن المعمار مع مقدمة رائعة للدكتور مصطفى جواد ، ولقد كشف كتاب الفتوة عن كثير من النواحي الغامضة لتلك الفرقة العجيبة .

والفتوة هي مجموعة من الفضائل أحقها الكرم والسخاء والمروءة ، تميز المنتصف بها من غيره من الناس<sup>(١)</sup> . وكان قوامها «الإيثار»<sup>(٢)</sup> ، كان هذا هو المعنى القديم لكلمة «فتى» ، ولكن حين أخذها الزهاد والصوفية ، واعتبروها من مبادئهم وأضافوا إليها صفات أخرى تتصل كلها بفكرة الإيثار مثل : كف الأذى ، وبذل الندى ، وترك الشكوى ، وإسقاط الجاه ، ومحاربة النفس ، والعفو عن زلات الآخرين .

أما القشيري : فقد عدد تعريفات الفتوة المتعددة : فيعرفها هو فيقول : «أصل الفتوة أن يكون العبد ساعياً أبداً في أمر غيره» ثم يضع تعريفات الصوفية المختلفة فيها . وسنعود إلى كل هذه التعريفات في كتابنا عن التصوف في القرنين الثالث والرابع الهجري . أما ما يعيننا الآن هو أن أول تعريف يذكره زاهد أو صوفي ، ويصرح فيه باسم الفتوة هو رجلنا الفضيل بن عياض . يقول الفضيل : الفتوة هي الصفح عن عثرات الإخوان<sup>(٣)</sup> . ولذلك اعتبر الفضيل بن عياض أول فتي من الزهاد والصوفية . فيعتبره ابن المعمار «شيخ الفتيان» ، ويورد له حديثاً عن الرسول في الفتوة «قال رسول الله ﷺ - ليأتي

(١) ذكر أبو الملا عفيبي : الملازمة والصوفية وأهل الفتوة ص ١٩٧ .

(٢) مقدمة كتاب ابن المعمار ص ١٠ للدكتور مصطفى حداد .

(٣) القشيري : الرسالة ج ٢ ص ٤٧٣ .

على الناس زمان تعدم فيه الفتوة ، وتنقضى فيه المروءة وتضيق فيه الأخلاق ، ويستغنى الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء ، فإذا كان ذلك ، فانظروا العذاب ، صباحاً ومساءً (١) .

ولاشك أن التأمل الذاقى فى حياة الفضيل بن عياض وفى كلماته ، ليبين بوضوح أن الرجل عاش عيشة إيثار ، ومروءة وسخاء . ولقد رأينا مع خليفة المسلمين - هارون الرشيد «بتفتى» ويرفض عطايها ، وقد كان فى أشد الحاجة إلى مال له ولأسرته ، فرفض كل شىء .

وقد قرن الفضيل فتوته بالملامة ، فاتضح فيه تماماً روح الملامية ، كما عرفها القرن الثالث والرابع . ولقد تنبه إلى ملامية الفضيل بن عياض - علامة العراق الممتاز الدكتور كامل الشيبى ، بقول الدكتور كامل الشيبى : « ونستطيع فى بحثنا عن أصول الملامية أن نجد أمثلة قديمة فيها ملامة بسيطة . فن ذلك ما رواه أبو نعيم من أن بعض الزهاد قال : « وقفنا للفضيل بن عياض على باب المسجد - ونحن شبان علينا الصوف ، فخرج علينا فلما رأنا ، قال : وددت أنى لم أركم ، ولم ترونى . أترونى سلمت منكم ، أن أكون رسماً لكم ، حيث رأيتم وتراءيتم لى . لأن أحلف عشراً أنى مرء ومخادع أحب إلى من أن أحلف واحدة أنى لست كذلك » . وفى الحقيقة إن الدكتور الشيبى على حق . إنه أورد مثلاً واحداً . والأمثلة كثيرة ، وقد ذكرنا بعضها من قبل ، كان الفضيل يأخذ بأبدي سفيان ابن عيينة وشعيب بن حرب - ويذكرهما بأنه لا يوجد على الأرض من هو أسوأ منه ومنها . وقد انتهى الدكتور كامل الشيبى إلى هذه النتيجة الرائعة « وبذلك يبدو الفضيل الكوفى - وهو الخراسانى السابق - ملامتياً قديماً من تفضيله أن يعرف بالرياء والخداع ، على أن يعرف بالولاية والزهد ، وأنه كان بالاختصار ملامتياً ، ما دام الملامية « أظهروا للخلق قبائح ما هم فيه ، وكنمو عنهم محاسنهم ، فلامهم الخلق على ظواهرهم ، ولاموا أنفسهم على ما يعرفونه من بواطنهم » كما علمنا بذلك أبو حفص الفتى الخراسانى (٢) . »

ولاشك أن روح الملامية تنضح فى حياة الفضيل بن عياض انضاح روح الفتوة ، بل كان الفضيل بلا منازع أول فتيان زهاد المسلمين ، كما كان أول ملامتى بمعنى الكلمة .

• • •

(١) ابن المعار: الفتوة ص ١٣٣ ، ١٣٤ .

(٢) الدكتور الشيبى : الصلة ج ٢ ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .

## ٨- مدرسة الفضيل بن عياض :

كان لابد لشيخ الحرم أن يترك مدرسة كبيرة في مكة ، بل في العالم الإسلامي كله ، علاوة على توارث كبار الصوفية في القرنين الثالث والرابع لكثير من عباراته وآرائه . كما أن الفتوة والملازمة ازدهرت في موطنه الأصلي خراسان .

أما تلامذته المباشر ، فأولهم علي بن الفضيل ابنه . وقد ذهب بعض مؤرخي التصوف إلى أن علياً كان زاهداً من الطبقة الأولى ، وفضله على أبيه . ولكن لم يمتد به العمر .

وقد نشأ علي بن الفضيل في رحاب أبيه ، في بيت الزهد الكبير ، فسار على نهج أبيه ، دون إخوته جميعاً . وكان يصلّي الليلي حتى يزحف إلى فراشه ثم يلتفت إلى أبيه ويقول : يا أبت سبقتي المتعبدون<sup>(١)</sup> . وعاش في مقام الخوف - كما عاش أبوه . ويقول سفيان بن عيينة « ما رأيت أحداً أخوف من الفضيل وابنه » . وكان أيضاً يصيه الشهقة والصعقة عند سماع أحاديث النار<sup>(٢)</sup> ، « ولا يستطيع أن يقرأ سورة القارعة ، ولا أن تقرأ عليه ، وكان يصيح « النار . . . ومتى الخلاص من النار » . كما كان أيضاً من الروحانية ، ويذكر أبو نعيم أن أمير المؤمنين قد أدخل له الطواف ، وأراد الفضيل أن يغتم الطواف ، فلم يستطع ، فقال له علي « يا أبت : تغتم خلوة الحور . . . » . وأخيراً طلب من أبيه « يا أبت : سل الذي وهبني لك في الدنيا ، أن يهبني لك في الآخرة ، ثم بكى . وحين مات ، كان الفضيل منكر القلب حزيناً ، وكان يقول « حبيبي من كان يساعدني على الحزن والبكاء ، يا ثمرة قلبي ، شكر الله ، على ما علمه فيك<sup>(٣)</sup> . ولم يقبل فيه تعزية ، إن الله قد أحب هذا له ، وهو يحب ما أحب الله . ويتذكره بشر بن الحارث الصوفي البغدادي ، ذلك ضمن عشرة كانوا ينظرون في الحلال النظر الشديد ، « لا يدخل بطونهم إلا الحلال ، ولو استفوا التراب<sup>(٤)</sup> » .

أما تلميذ الفضيل الثاني فهو صفيه وخادمه إبراهيم بن الأشعث . وقد كان إبراهيم أيضاً محدثاً<sup>(٥)</sup> . وقد نقل إلينا إبراهيم بن الأشعث أخبار عياض ، أما تلميذه الثالث فهو عبد الله بن يزيد مردويه - صاحب الفضيل بن عياض يكنى أبا عبد الله ويقال له مردويه الصائغ « فيما يقول الذهبي . ويذكر

(١) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٢٩٩ .

(٢) أبو نعيم : حلية ج ١ ص ٢٩٨ - ٢٩٩ - ٣٠٠ .

(٣) ابن الجوزي : صفة ج ٢ ص ١٤٠ .

(٤) الذهبي : ميزان ج ١ ص ٢٠ .

(٥) نفس المصدر :

الذهبي أيضاً أن غالب ما يرويه إنما هي حكايات عن الفضيل . وقد مات مردويه سنة خمس وثلاثين ومائتين هجرية<sup>(١)</sup> .

أما الشخصية الرابعة من تلامذته فهي شخصية إبراهيم بن شماس السمرقندي . وكان أيضاً من كبار المحدثين ، وتلمذ على الفضيل بن عياض كما تلمذ على ابن المبارك . ثم سكن بغداد<sup>(٢)</sup> ، وكان يسلك في زهده مسلك الفضيل .

ثم نجد تلميذاً خامساً : هو قادم الديلمي . يقول صاحب الحلية : إنه صحب الفضيل بن عياض وأقرانه ، وسلك مسلكه في الخشوع والخشوع وقد سأل قادم الفضيل « من الراضى بالله » فأجاب الفضيل « الذى لا يجب أن يكون على غير المتزلة التى جعل فيها<sup>(٣)</sup> » .

ولسنا هنا نتبع تاريخ مدرسة الفضيل ، أو نستقرى كل رجالها - إنما نضع صوراً منها . كان الفضيل مدرسة كبرى أثرت في الزهد الضارب للتصوف في القرن الثاني الهجرى ، ثم انتقل تأثيرها إلى القرن الثالث ، وكان مبشراً كبيراً بالفتوة والملامة . وما زال الكثير من أخبار الرجل وأقواله ماثلاً في الكتب ، أو لم يصل إلينا ، حتى تتمكن من رسم صورة كاملة للرجل ولآرائه .

(١) الذهبي : ميزان ج ٢ ص ٦٢١ .

(٢) أبو نعيم : حلية ج ١٠ ص ١٢٨ .

(٣) نفس المصدر : ج ١٠ ص ١٣١ .

## الفصل الرابع

### مدرسة بلخ

#### أو مدرسة إبراهيم بن أدهم

خرج من «بلخ» في خراسان أكبر مدرسة للزهد الضارب نحو التصوف ، بل نكاد نجد أسس التصوف في هذه المدرسة . وقد اتصلت هذه المدرسة بأول زاهد على وجه الحقيقة فيها هو إبراهيم بن أدهم ( المتوفى عام ١٦١هـ أو ١٦٢هـ = ٧٧٦ - ٧٧٨ م ) . حقاً لقد سبقه من قبل بعض الزهاد التقليديين كالضحاك بن مزاحم الهلالي وعطاء بن أبي مسلم ، وكان لها لمحات جميلة من الزهد . ولكن ينبثق الزهد ، وروح الحياة الإسلامية انبثاقاً كاملاً لأول مرة في خراسان في إبراهيم بن أدهم . وقد ذهب جولد تسيير أن بيئة خراسان كانت معدة لهذه الحياة الروحية وبخاصة أن جهوداً عظيمة قد بذلت في القرن الثاني لإغناء اللغة العربية بالمؤلفات الأعجمية ، فنقلت بعض المؤلفات البوذية إلى الأدب العربي ثم يذكر أن ترجمة عربية معدلة قد تمت لكتاب « بيلاهر وبوداسف » ، وكذلك ككتاب البد وغرض جولد تسيير واضح ، وهو أن يثبت أن الحياة الروحية في فارس قد استندت على مؤثرات هندية . وقد تابع جولد تسيير في رأيه عدد من المستشرقين كنيكلسون وعدد آخر من الباحثين العرب ، كأن الحياة الروحية في الإسلام لا تنبثق إلا من الخارج .

ومما يدل على «الضيق الفكري» ، أو اللامحبة الهوجاء التي تميزها جولد تسيير ، أن المؤثرات التي ينبغى أن تتلمس في فارس ، إنما ينبغى أن تكون في التراث الفارسي القديم ، كان هذا التراث أقرب إلى أهل البلاد - فرساً أو عرباً من تراث الهند . ثم إذا كانت الكتب قد ترجمت في القرن الثاني - ومعنى أدق في النصف الثاني من القرن الثاني ، فلا يمكن أن تنتشر في عشية وضحاها ، كان لا بد للآراء أن تنضج ، وتسير بطيئة ، ثم تسرى في أعماق الحياة الروحية ، ولكن إبراهيم بن أدهم توفي عام - ١٦١هـ أو ١٦٢هـ وقبل أن ترجم هذه الكتب . وثالثة : لم تكن بيئة المسلمين في خراسان بيئة عقلية إبان ذلك الوقت ، كانت بيئة نقليّة سمعية ، أي كان لحفظ الحديث وروايته المكان الأول . ومن خراسان ظهر ثم أتى رجاء الحديث الكبار . ورابعة : إن أمامنا وبين أيدينا أقوال إبراهيم بن أدهم وتلامذته ،

(١) جولد تسيير : العقيدة والشريعة ص ١٤١ .

وسنعرضها للقارئ ، وسنفتح جوانبها . ولن نرى فيها ظلًا لبوذية .  
 إن «السياحة» التي كانت وسماً للخراسانيين ، لم تكن سياحة الحكيم الهندي العاري ، ولكنها كانت سياحة في طلب الحديث . . . وقد أرخ عبدالله بن المبارك لأول سياحة جماعية خرجت من خراسان - فقال « خرجت أنا وإبراهيم بن أدهم من خراسان ونحن ستون فتى ، نطلب العلم ، ما منهم آخذ غيري »<sup>(١)</sup> هكذا كان خروج الخراسانيين ، في طلب العلم ، أى في طلب الحديث وقد فعل هذا الفضيل بن عياض من قبل وذهب الفضيل - كما رأينا - للكوفة ، فحدث ، ثم تزهد ، وكذلك ذهب ابن المبارك فحدث ومهر في الحديث ، ثم أصابه رشاش من الزهد ، وأخيراً خرج إبراهيم بن أدهم للحديث ، فذهب إلى البصرة ، والبصرة موطن الروح ، وكانت فيها آثار مدرسة الحسن البصرى ومدرسة رابعة العدوية - مدرسة الروحانيين في الإسلام ، . . . كما ذهب إلى الكوفة وحدث بها وأخذ عن سفيان الثوري . . . ثم اتبعته فيه نوازع الروح ، فلم يعد إلى خراسان ، بل انطلق إلى مكة أحياناً ثم إلى الشام والثغور يردد أنشودة الزهد ، ويقدم للتصوف أسسه الأولى . . .  
 وسنحاول أن نتبع حياة الرجل ، وأن نحقق ما فيها من أساطير ، ثم نعرض لآرائه - وأخيراً - نتكلم عن تلامذته .

#### ١ - حياة إبراهيم بن أدهم ودراساته :

أسطورة توبته : وكما أضنى مؤرخو التصوف الأقدمون على توبة الفضيل بن عياض الخراساني - أسطورة - العيار - الشاطر - قاطع الطريق . . . الذى يتسلق الجدار لحبيبه فيسمع صوت الهاتف من وراء الغيب ينهأه ، كذلك فعلوا في توبة إبراهيم بن أدهم . . . ووضعوا هذه التوبة على لسانه هرتحت إلحاح في القول من خادمه وصفيه إبراهيم بن بشار : يسأله إبراهيم بن بشار: يا أبا إسحاق - كيف كان أوائل أمرك حتى صرت إلى ما صرت إليه . ويتأني إبراهيم بن أدهم أن يجيب - ولكن خادمه يصر ويلح : فيجيب إبراهيم : كان أبى من أهل بلخ أو كان من ملوك خراسان ، وكان من المياسر ، وحبب إلينا الصيد ، فخرجت راكباً فرسى ، وكلبى معى ، فبينما أنا كذلك ، فثار أرنب أو ثعلب ، فحركت فرسى ، فسمعت نداء من ورأى : ليس لذا خلقت ، ولا بهذا أمرت . فوقفت أنظر بمنة وسرة ، فلم أر أحداً . فقلت : لعن الله إبليس . ثم حركت فرسى ، فأسمع نداء أجهر من ذلك : يا إبراهيم ليس لذا خلقت ، ولا بهذا أمرت : فوقفت أنظر بمنة وسرة فلا أرى أحداً : فقلت : لعن الله إبليس . ثم حركت فرسى ، فأسمع نداء من قربوس سرجى : يا إبراهيم : يا إبراهيم ما لذا خلقت ، ولا بهذا

(١) أبو نعيم : حلية ج ٧ ص ٣٩٦ .

أمرت : فوقفت وقلت : أنبئت ... أنبئت ، جاءني نذير من رب العالمين ، والله لا عصيت الله بعد يومى ذا ما عصمتى ربي . فرجعت إلى أهلى ، فخليت عن فرسى ؛ ثم جئت إلى رعاة لأبى فأخذت منه جبة وكساء ، وألقيت ثيابى إليه ... حتى وصلت إلى العراق ، أرض ترفعى ... وأرض تضعنى ... » (١) تلكم هى القصة الدراماتيكية التى وضعها أغلب من أروخوا لإبراهيم بن أدهم من الأقدمين ، ...

ولقد هلل ... وصاح ... جولدت تسيهر ... لقد وجد هنا ضالته ، التى ثبتت أن بوذا ... وقصته سيطرت على حياة صوفية الإسلام الأوائل . يقول جولدت تسيهر « إن الفكرة الدينية المسماة بالزهد ، التى صادفت الإسلام السنى ، والتى لا تتفق مع السمات المألوفة التى نعرفها فى التصوف الإسلامى : تكشف عن آثار قوية تدل على تسرب المثل الأعلى للحياة عند الهنود إلى المسلمين ، ومن أعظم المعبرين عن فكرة الزهد هذه ، الشاعر أبو العتاهية التى عرض أنموذجاً للرجل الفاضل الجليل بقوله :

يا من ترفع للدنيا وزينتها ليس الترفع رفع الطين بالطين  
إذا أردت شريف الناس كلهم فانظر إلى ملك فى زى مسكين  
أو ليس هذا هو بوذا »

ثم يمضى فى استدلاله المريض فيقول « ومن الشواهد القوية التى ينبغى أن تعد قاطعة فى الموضوع الذى نعالجه أن قصة أحد الصوفية الكبار فى الإسلام تشبه السمات البارزة فى سيرة بوذا ، وأريد بهذا قصة الولي إبراهيم بن أدهم المتوفى فيما بين سنتى ١٦٦/١٦٢ هـ = ٧٧٦ - ٧٧٨ م ، ... وقد اختلفت القصص الخاصة بحياته فى بواعث فراره من الدنيا ، ولكن كل الروايات تدور فى جوهرها على الفكرة ذاتها . فهى تخبرنا أن إبراهيم كان ابن ملك من ملوك بلخ - الذى حزم أمره فى بعض الروايات - عندما سمع صوتاً من السماء يناديه ، وفى روايات أخرى . بسبب تفكيره فى الحياة التى لا تشوبها نوازع أو حاجات ، وذلك عندما أطل من نافذة قصره ، فرأى رجلاً فقيراً - فخلع ثوب الإمامة ، ورمى به بعيداً وأبدله بأطوار سائل ، ثم غادر قصره ، وهجر كل ما يربطه بالعالم حتى زوجه وأولاده وأوى إلى الصحراء » .

ثم يذكر جولدت تسيهر أن هناك بواعث أخرى مختلفة عن اعتزال هذا الأمير لحياته المترفة وإقباله على الزهد ، وأن باعاً من هؤلاء البواعث يستحق الالتفات والنظر ، ويستند جولدت تسيهر فى هذا على الصوفى المتأخر جلال الدين الرومى . فجلال الدين يذكر أن رجال الحرم فى قصر إبراهيم بن أدهم

(١) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٣٦٨ . والقشيري : الرسالة ج ١ ص ٥١ ، واللمى : طبقات ص ٢٧ ، والخوانسارى : روضات الجنات ص ٣٩ .

سمعوا جلبة وضوضاء فوق سطح القصر ، فذهبوا لاستطلاع الأمر ، فوجدوا قوماً يبحثون عن إبلهم انضالة ، فأق الحراس بهؤلاء القوم إلى الأمير . وحين سألهم ( هل حدث أن تفقد امرؤ إبله فوق سطوح المنازل ) . أجابوا ( نحن لانعمل إلا اقتداء بل أنت الذي تسعى إلى الانحداد بالله ، بينما أنت جالس على عرشك ، فهل لرجل في مثل هذا المقام يستطيع أن يقترب من الله . فكان من هذا أن هرب الأمير من القصر ، ولم يره أحد منذ ذلك الوقت<sup>(١)</sup> .

وهكذا يستخرج جولد تسيهر نظريته في أثر العقائد الهندية في الآراء الصوفية الإسلامية الأولى . وما أشد تهاقت مقدماته ونتائجها . لقد اتخذ أسطورة وضعها مؤرخو التصوف في القرنين الرابع والخامس الهجريين ، واتخذها مادة له ، كما استند على أقوال صوفي متأخر - هو جلال الدين الرومي - ليؤيد هذه المادة الأسطورية ، ولينتهي إلى أن الحياة الروحية في الإسلام مدينة لعوامل خارجية هندية وفارسية وأفلاطونية محدثة . وأن الإسلام خلو من كل هذا . وليس هذا هو التاريخ الصحيح التزيه القائم على البحث العلمي .

ثم نجد نيكلسون يتخبط في آرائه ، فبينما يقول في كتاب من كتبه بأنه « لا يرى في أقوال متصوفة - من أمثال إبراهيم بن أدهم (المتوفى سنة ١٦٦ هـ) وداود الطائي (المتوفى سنة ١٦٥) والفضيل بن عياض (المتوفى سنة ١٨٧ هـ) وشقيق البلخي (المتوفى سنة ١٩٤ هـ) - ما يدل على أنهم تأثروا بالمسيحية أو بأى مصدر أجنبي آخر إلا قليلاً »<sup>(٢)</sup> نراه يقول في كتاب آخر يتابع جولد تسيهر ويكرر رأى جولد تسيهر القائل « بأن الزاهد الصوفي إبراهيم بن أدهم يدوفى الرواية الإسلامية أميراً لبلخ ، تخلى عن عرشه وأصبح درويشاً متنقلاً . وما ذلك إلا تكراراً لقصة بوذا<sup>(٣)</sup> ثم تابع المرحوم الدكتور عفيفي جولد تسيهر ونيكلسون في رأيها<sup>(٤)</sup> . أما العلامة العراقي الممتاز الدكتور كامل الشبيبي فقد ذهب إلى أن قصة تزهدي إبراهيم بن أدهم تذكرنا بنبوة موسى ، حين حدثه الله من الشجرة<sup>(٥)</sup> . وتؤيد إحدى الروايات التي يذكرها ابن الجوزي والحوانساري صاحب روضات الجنات هذا التخريج إذ يذكر كان إبراهيم على فرسه يركضه ، إذ سمع صوتاً من فوقه : ما هذا العيب ، أفحسبتم أننا خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون . اتق الله وعليك بالزاد ليوم القيامة<sup>(٦)</sup> . ولا شك أن هذا التفسير أقرب إلى حياة إبراهيم

(١) جولد تسيهر : العقيدة والشريعة ص ١٤٢ - ١٤٤ .

(٢) نيكلسون : في التصوف الإسلامي وتاريخه ص ٣ .

(٣) نيكلسون : الصوفية في الإسلام ص ٢٢ .

(٤) الدكتور عفيفي : التصوف : الثورة الروحية في الإسلام ص ٨٢ .

(٥) الدكتور الشبيبي : الله اتج ١ ص ٣٥١ .

(٦) ابن الجوزي : ص ١٢٧ ، والحوانساري : روضات ص ٣٩ .

ابن أدهم وآرائه . ولكن حل حدثت تلك القصة الأسطورية .

إن أسطورة أبناء الملوك من الصوفية كثيرة في كتب طبقات الزهاد والصوفية ، كانت غايتها متعددة ... إلى محاربة « الملك الدينوي » « بالملك الأخرى » ووضع هذا في موازاة ذلك ... هذا عرض زائل فان ، وذلك جوهر باق خالد أبدى .

وثانياً - منح عزاء خارجي وداخلي لمن تزهدها وتصوفوا من أغنياء الناس وأواسطهم .  
وثالثاً - تضخيم الصورة وتلوين الأسطورة إنما هي دعوة للتصوف في أوساط العامة ونشر للفكرة الدينية نفسها . وقد استخدمت الطرق - حين تكونت - أساطير القدامى من الصوفية لتأييد مذاهبهم ونظرياتهم ، وقد دخل إبراهيم بن أدهم في أساطير الطرق الصوفية وسلاسلهم ... وستخذ قصة « الملك إبراهيم » أسطورة كبرى عاشت وما زالت تعيش مختزقة جبال طرسوس ومنتشرة في تركيا ثم تخترق البحار فتحيا حتى الآن في الملايو .

ومن هنا نرى أن أحد أبناء خراسان وفي مدينة بلخ جعل أسطورة « من زهدت أبناء الملوك ... ورؤساء أرباب السير والسلوك ؛ بل من سلاطينهم السبعة في أول طبقاتهم الخمس (١) » وأخذت القصص والمخترعات تتوالى على صورته حتى كبرت صورته الأسطورية وكبرت . ولقد فعلوا هذا من قبل في عمر بن عبد العزيز ، فقلبوا هذا الخليفة الأموي إلى صورة زاهد في أطنان بودا ... وسيفعلون هذا في شقيق البلخي وشاء بن شجاع الكرمانى ... ثم الششترى والعدد العديد من الصوفية ... وهؤلاء الصوفية - باستثناء الششترى - عاشوا في خراسان ، في فارس ، وبخاصة بلخ إحدى مراكز البوذية القديمة ، فهم إذن أثر من آثار البوذية ... ولا يمكن أن تنشأ - لدى المسلمين - حياة للروح - اللهم إلا إذا انبثقت من عوامل خارجية . كانت هذه هي النتيجة التي استخلصها المستشرقون من أساطير وروايات مؤرخي التصوف الأقدمين .

ولسا نود هنا أن نبحت أسطورة توبة إبراهيم بن أدهم من الناحية التاريخية . إن تهافتها واضح فلم يكن من ملوك خراسان أو بمعنى أدق من حكام المنطقة أو أمرائها أو من حكام بلخ وأمرائها ... أمير يدعى أدهم بن منصور كان من أغنياء بلخ والموسرين بها ، وأنه اقتنى الضياع وبنى القصور ... وعاش إبراهيم بلاشك فتي مترفاً كمادة أبناء الأغنياء والمترفين . يقول ابن الجوزي « كان إبراهيم بن أدهم من الأشراف ، وكان أبوه كثير المال والخدم (٢) » وكان يفرج للصيد مع الغلمان والخدم . ثم إذا حدثت هذه الأسطورة فلا ضرر ولا ضرار . ولكن ماتلبث المصادر الصوفية أن تمدنا بقصة أخرى « لبودا » كما

(١) الخوانساري : روضات ص ٣٩ .

(٢) ابن الجوزي : صفة ج ٤ ص ١٢٧ .

يتصور هؤلاء المستشرقون ، ولكن ليست في بلخ « المركز القديم للبوذية » ولكن في الشام فكأن بوذا انتقل أيضاً إلى الشام وتحقق في شخصية شامية فيها . ومن العجب أن الذي يقص قصة هذا البوذي هو إبراهيم بن أدهم نفسه . فإبراهيم بن أدهم يمر في صحراء الشام على قبر . . هو وخادمه إبراهيم بن بشار . ويتوقف إبراهيم على القبر ويترحم على صاحبه ويبكي ويستوضحه خادمه وصفيه إبراهيم بن بشار جلية أمره . فيخبره بأن « هذا قبر حميد بن جابر أمير هذه المدن كلها ، كان غرقاً في بحار الدنيا ثم أخرجه الله عز وجل منها فاستنقذه ! . . لقد بلغني أنه سر ذات يوم بشيء من ملاهي ملكه وديناه وغروره وفتته . . ثم نام في مجلسه ذلك مع من يخصه من أهله . . فرأى رجلاً واقفاً على سريره ويده كتاب ، فناوله ، ففتحه ، فإذا فيه بالذهب مكتوب ! . لا تؤذرن فانياً على باق ، ولا تغترن بملكك وقدرتك وسلطانك وخدمك وعبيدك ولذاتك وشهواتك ، فإن الذي أنت فيه جسم ، لولا أنه عديم ، وهو ملك ، لولا أن بعده هلك ، وهو فرح وسرور ، لولا أنه هو وغرور ، وهو يوم لو كان يوثق له بعد ، فسارع إلى أمر الله ، فإن الله قال « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم ، وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين » . . فاتبه فرعاً وقال : هذا تنبيه من الله عز وجل وموعظة . . فخرج من ملكه لا يعلم به ، وقصد هذا الجبل فتعبد فيه ، فلما بلغني قصته ! وحدثت بأمره ، قصدته فسألته . فحدثني يبدو أمره ، وحدثته يبدو أمرى ، فما زلت أقصده حتى مات ودفن هنا<sup>(١)</sup> . . والقصة هنا تتشابه مع قصة إبراهيم بن أدهم ، غير أن المنادى نادى إبراهيم بن أدهم في صحوره بينما ألقى حميد بن جابر في نومه .

إذن ما هي الحقيقة التاريخية لإبراهيم بن أدهم ، والتي يمكن استخلاصها من خلال الأخبار الكثيرة المتضاربة عنه .

إن أول مشكلة تقابلنا ونحن نبحت حياة إبراهيم بن أدهم وتراثه : هي مشكلة فارسيته أو عربيته . إن المستشرقين - وقد اعتبروه - مثلاً لبوذا في العالم الإسلامي - ذهبوا إلى أنه فارسي طالما كانت بلخ - مركز البوذية - هي موطنه . وهذه أكذوبة كبرى ، مع أنه لا يقدح في إسلاميته أو تصوفه كونه فارسياً أو عربياً . وكما قدمت فارس للعالم الإسلامي من علماء وفقهاء ومتكلمين ومحدثين وصوفية دافعوا عن حوزته ، ونشروا آراءه - ولكن هنا أخطأ المستشرقون ومن تابعهم من الباحثين العرب في اعتبار إبراهيم ابن أدهم فارسياً إنه يمكن القول : أنه كان تعبيراً عن بيئة خراسان ، وأنه نبع عن كثير من مقوماتها . ولكن ليس في تراثه الذي تركه لنا روح الفرس بالذات وهو نفسه - حين رحل إلى المشرق ، ونزل مكة والشام إلى البلاد العربية البحتة ، كره العودة إلى خراسان . حقاً كانت عوامل روحية دعت إلى السفر

من خراسان ، ولكن لا يوجد في كتاباته نصوص تثبت أنه كان غريباً في الديار التي لجأ إليها . إننا نرى في الشخصيات الفارسية التي أثرت في حياة الروح لدى المسلمين جميعاً تشوفها إلى أرض فارس ، فذهب سلمان إلى المدائن واستقر بها ، وهاجرت أسرة الحسن البصرى إلى البصرة ، وقد كان في البصرة روح فارسية لاشك . . . وعاش حبيب العجمي في البصرة ، ولم يرحها إلا للحج . وإبراهيم بن أدهم لم يفعل ، وبقى في المشرق حتى وفاته ولقد تنبه أبو نعيم إلى عروبه فقال « وكان من العرب من بنى عجل ، كريم الحسب »<sup>(١)</sup> .

ولقد هاجر فعلاً كثير من العجيليين من الكوفة إلى خراسان ، وقد اتهمت هذه القبيلة بالشيعة وغلا بعض بطونها في محبة أهل البيت . ولكن ليس يعنى هذا أن إبراهيم بن أدهم وأسرته كانوا شيعة وإن كان من محبي أهل البيت وقد خدم الباقر في رواية وجعفر الصادق في رواية ، وقد كانت هذه سنة المسلمين المخلصين جميعاً ، وهى محبة أهل البيت . ولكن هذا النص الذى يذكر أنه من العجيليين . ولكن ما نلبث أن نظفر بنص آخر وهو أن إبراهيم بن أدهم حدث عن أبيه أدهم بن منصور العجلى<sup>(٢)</sup> . « إبراهيم بن أدهم إذن عربى من قبيلة عجل . واسمه الكامل هو إبراهيم بن أدهم بن منصور بن زيد بن جابر بن ثعلبة العجلى »<sup>(٣)</sup> .

ومن المؤكد أن أباه كان من أغنياء بلخ ، ويبدو أيضاً أنه كان محدثاً ، وكان للحديث أهميته ، فتطلبه الناس أغنياء وفقراء . كما أن أدهم بن منصور كان أيضاً من أتقياء المسلمين ومحبي الزهاد . « كان أدهم رجلاً صالحاً » وقد ولد له إبراهيم في مكة ، « فرفعه الرجل في خرقة ، وجعل يتبع أولئك العباد والزهاد ويقول : ادعوا الله له ، فبرى أنه قد استجيب لبعضهم فيه »<sup>(٤)</sup> .

نشأ إبراهيم بن أدهم إذن في بيت غنى وسار ، ولكن صاحبه كان محدثاً وكان في الوقت نفسه من « محبي العباد والزهاد » وقد شغل إبراهيم بن أدهم بالحديث . وقد ذكرنا من قبل قول عبد الله بن المبارك « خرجت أنا وإبراهيم بن أدهم من خراسان . . . ونحن ستون فتى نطلب العلم » والعلم هنا هو طلب الحديث . ويبدو أنه روى عن أبيه أولاً ، ثم عن جماعة من التابعين ثانياً . عددهم ابن الجوزى ، ونلاحظ من بينهم « مالك بن دينار » الزاهد البصرى المشهور ، وتلميذ الحسن البصرى ، كما روى أيضاً عن « سفيان الثورى » . ولاشك في أن رحلاته الأولى كانت تطلب الحديث ، سواء في البصرة أو

(١) أبو نعيم : حلية ج ٧ ص ٢٧٣ .

(٢) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٥٥ .

(٣) الخوانسارى : روضات الجنات ص ٣٩ .

(٤) أبو نعيم : حلية ج ٧ ص ٣٧١ .

الكوفة . ولكن لم تظمن نفسه إلى كل هذا ، فبدأت رحلاته إلى الشام وبلاد العرب والشعور والإسكندرية . ويهمننا في حياة ابن أدهم وتطوراته الروحية اثنان ممن روى عنهم<sup>(١)</sup> : مالك بن دينار وسفيان الثوري ، كان مالك بن دينار يمثل مدرسة الحسن البصري ، وإليه انتهت تعاليم الأستاذ ، ثم اعتنق مالك فكرة الروحانيين - كما ذكرت من قبل - ولقد أثر هذا كله في إبراهيم بن أدهم . أما سفيان الثوري ، فيمثل مدرسة الحديث والفقه في الكوفة الضاربة إلى الزهد . وقد انتهى سفيان نفسه إلى الزهد المطلق ، بل تردد على مدرسة البصرة ، ومال إلى الروحانيين أيضاً . . . . . ولقد لزم إبراهيم ابن أدهم سفيان الثوري مدة من الزمن وكانا إذا التقيا يتسامران حتى الصباح<sup>(٢)</sup> ، وذهباً مراراً سويماً إلى الحج ، وإلى بيت المقدس . وفي بيت المقدس دخل سفيان وإبراهيم بن أدهم ومعهما مجموعة من زهاد المسجد الأقصى ، وانحرف سفيان يريد الصخرة فقال له إبراهيم : يا أبا عبد الله ارجع ، فإنك أتيت وصررت لنا إماماً ، فلا يراك الناس ، فيروه حتماً ، فأطاعه سفيان<sup>(٣)</sup> . وهنا موقف رجل يتابع الأثر متابعة تامة . بل ينهى سيد المحدثين عن أن يتدع سنة لم يستنها الرسول ولا الصحابة ولا التابعون من قبل . . . . . إذن كان إبراهيم بن أدهم محدثاً . ولكنه رأى الحديث للدنيا ، فأخذ منه آدابه « كان إبراهيم بن أدهم إذا سئل عن العلم أجاب بالأدب » . وقد سئل أيضاً « ألا حفظت - كما حفظ أصحابك . فأجاب « كان همى هدى العلماء وآدابهم » وهو يقرر « ما يمنعني من طلب العلم أنى لا أعلم ما فيه من الفضل ، ولكن أكره أن أطلبه - مع من لا يعرف حقه » فالعلم إذن أى « الحديث » ينبغي أن يكون طريقاً لآخرة ، لا للتكسب والشهرة . وهو ينمى على سفيان الثوري أنه حدث . . . فيقول « قد سمعنا كما سمع ، فلو شاء سكت ، كما سكتنا »<sup>(٤)</sup> .

ولكن يبدو أن أثر البصرة كان أقوى في إبراهيم بن أدهم لقد تردد الرجل بين المدينتين : كان في الكوفة الحديث والفقه ، وكان في البصرة الزهد والحديث . . . وكان مالك بن دينار وعطاء السلمي ومدرسة الحسن البصري ومدرسة رابعة يخوضون في الزهد . ورأى إبراهيم بن أدهم سفيان الثوري : فقيه الإسلام ، ينتهى أيضاً إلى الزهد ، كما رأى مواطنه عبد الله بن المبارك يأخذ نفس المنحني ، وكان في مكة الفضيل بن عياض الخراساني أيضاً ممثلاً للبهاء الإلهي في حرم الله . . . وكان الطريق أمامه واضحاً ، ترهد الرجل على أيدي المشيخة البصرية من تلامذة الحسن البصري وكان نتاجاً رائعاً لها .

(١) أبو نعيم : حلية ج ٧ ص ٣٧١ .

(٢) نفس المصدر : ج ٨ ص ٣١ .

(٣) نفس المصدر : ج ٨ ص ٥٠ .

(٤) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٢٧ .

وخرج منها مراراً وقد صحبه مشيختها : أبو إسحق الفزاري ومحمد بن الحسن وحذيفة المرعشي وأبي يوسف العشوي وتفرقوا في الثغور مرابطين . . . أو عاشوا معه يتكسبون الحلال . أما هو فلم يخرج للجهاد أو للرباط - كما قال هو - بل خرج طلباً للكسب الحلال<sup>(١)</sup> أن يأكل من عمل يده . ولذلك أبى أشد الإباء أن يعود إلى خراسان ، بل كانت وجهته الشام بالذات ، حيث العمل ، عمل في الحصاد والزرع ، عمل أجيراً - للمسلمين وللنصارى . وأنكر بأشد الإنكار « المسألة » أى مساءة الناس . وهو هنا أيضاً يترسى خطى أستاذه مالك بن دينار . وكان مالك ينكر المسألة ، ويقيم أوده من كتابة المصاحف . . . ولم ينس إبراهيم بن أدهم البصرة ، فقد عاد إليها مراراً . . . وقد أصبح الشيخ الرسمي للزهاد ، ويبدو أن هذا قد تم بعد وفاة مالك بن دينار . وقد لجأ إليه أهل البصرة وهو يمر في أسواقهم يوماً ، وقالوا له : يا أبا إسحق إن الله تعالى يقول في كتابه « ادعوني أستجب لكم » ونحن « ندعوه منذ دهر ، فلا يستجيب لنا » فقال إبراهيم « يا أهل البصرة . . . ماتت قلوبكم في عشرة أشياء .

- أولها - عرفتم الله ولم تؤدوا حقه .
- الثاني - قرأتم كتاب الله ، ولم تعملوا به .
- والثالث - ادعيتم حب رسول الله ، وتركتم سته .
- والرابع - ادعيتم عداوة الشيطان ووافقتموه .
- والخامس - قلمت نحب الجنة ولم تعملوا لها .
- والسادس - قلمت : نخاف النار ورهنتم أنفسكم بها .
- والسابع - قلمت إن الموت حق ، ولم تستعدوا لها .
- والثامن - اشتغلتم بعيوب إخوانكم ونبذتم عيوبكم .
- والتاسع - أكلتم نعمة ربكم ولم تشكروها .
- والعاشر - دفنتم موتاكم ولم تعتبروا بها<sup>(٢)</sup> .

ونلاحظ هنا أنه وضع « المعرفة » على قمة الأمور التي ينبغي على المسلم أن يشغل بها . ولاشك أن فكرة « المعرفة » بدأت تتضح لدى الزهاد ، وتدخل في الزهد وتضرب به نحو التصوف . ومن المحتمل أن تكون صلته بالشاميين قد ألفت إليه ببعض المعاني عنها أو أن مالك بن دينار علمه إياها ، إنه يذكر هو نفسه للأوزاعي حين مقابلته له في الشام « يا أبا عمرو كثيراً ما يقول مالك بن دينار : إن من عرف الله تعالى في شغل شاغل وويل لمن ذهب عمره باطلا<sup>(٣)</sup> .

(٢) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٢٣ .

(١) أبو نعيم : حلية ج ٧ ص ٣٧٣ .

(٣) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ١٥ ، ١٦ .

وإن كان مؤرخو التصوف يحملونه قصة مقابله لراهب اسمه سمعان، وأن إبراهيم بن أدهم تعلم المعرفة منه . . . ويقص إبراهيم قصة مقابله لذلك الراهب : يقول إبراهيم : تعلمت المعرفة من راهب يقال له : سمعان . دخلت عليه في صومعته . فقلت له يا أبا سمعان ، مذكم أنت في صومعتك هذه ؟ قال : منذ سبعين سنة . قلت : فما طعامك ؟ قال : يا ضيبي فما دعائك إلى هذا ؟ قلت : أحببت أن أعلم . قال : في كل ليلة حمصة . قلت : فما الذي يبيع في قلبك حتى تكفيه هذه الحمصة ؟ قال : ترى الدير بجذائك ؟ قلت : نعم . قال : إنهم يأتونني في كل سنة يوماً واحداً ، فيزيتون صومعتي ، ويطوفون حوالها ، ويعظموني بذلك ، فكلما تناقلت نفسي عن العبادة ، ذكرتها تلك الساعة ، وأنا أحتمل جهد سنة لعز ساعة ، فاحتمل يا ضيبي جهد ساعة ، لعز الأبد . ففرق في قلبي المعرفة . فقال : حسبك أو أزيدك ؟ قلت بلى . قال : انزل عن الصومعة ، فترلت ، فأدلى لي ركوة فيها عشرون حمصة . فقال لي : ادخل الدير ، فقد رأوا ما أدليت إليك . فلما دخلت الدير ، اجتمعت النصارى . فقالوا : يا ضيبي ما الذي أدلى إليك الشيخ ؟ قلت : من قوته . قالوا : وما تصنع به . . . نحن أحق به . قالوا : ساوم . قلت : عشرين ديناراً . فأعطوني عشرين ديناراً . فرجعت إلى الشيخ ، فقال : يا ضيبي . ما الذي صنعت ؟ قلت : بعته . قال : بكم ؟ قلت : بعشرين ديناراً . قال : أخطأت لو ساومتهم عشرين ألفاً ، لأعطوك . هذا عز من لا يعده ، فانظر كيف يكون عز من يعده . يا ضيبي أقبل على ربك . دع الذهب والجاه . . . إذن يكون هذا الراهب هو سيب توبته ، وليس هذا النداء الذي سمعه من قريوس قرسه ، لو صحت هذه الرواية عن مقابله لهذا الراهب . بل إن قصة أخرى عن مقابله لراهب آخر تقرر أنه هو أيضاً سيب توبته . . . فقد مر إبراهيم براهب آخر في صومعته ، والصومعة على عمود ، والعمود على قلة جبل ، ورأى إبراهيم الرياح تعصف ، والصومعة تتأيل . فنادى الراهب قائلاً : يا راهب ، ولم يرد عليه ، وفي المرة الثالثة أخرج الراهب رأسه من الصومعة وأبأ إبراهيم قائلاً : لم تنوح ؟ سميتي باسم لم أكن له بأهل . . . قلت . . . يا راهب ولست براهب ، إنما الراهب من رهب من ربه . . . قلت : فن أنت قال : سجان : سجت سبعاً من السباع . قلت : ماهو؟ قال : لساني سبع ضار ، إن سبته فرق الناس . يا ضيبي : إن لله عباداً صامعاً ، وبكنا نطقاً ، وعمياً بصراً ، سلكوا خلال دار الظالمين ، واستوحشوا مؤانسة الجاهلين ، وشابوا ثمرة العلم بنود الإخلاص ، وقلعوا بريح اليقين ، حتى أرسوا بشط نور الإخلاص ، هم والله عباد كحلوا أعينهم بسهر الليل : فلورأيهم في ليهم ، وقد نامت عيون الخلق ، وهم قيام على أطواقهم ، ويتناجون من لاتأخذه سنة ولا نوم ، يا ضيبي عليك بطريقهم . قلت : على الإسلام أنت ؟ قال : ما أعرف غير الإسلام ديناً . ولكن أتى إلينا المسيح عليه السلام ، ووصف لنا آخر زمانكم ، فخلت الدنيا ، وإن

دينك وإن خلق» . . . «فأتى على إبراهيم شهرا حتى هرب من الناس . . .»<sup>(١)</sup> ، وهذه هي إذن قصة أخرى في سبب توبة إبراهيم ودخوله في طريق العباد . وهي قصص - أرى منها - الافتعال الكثير ، وإن كان من المحتمل أن إبراهيم بن أدهم - قد اختلط بالرهبان في سياحاته المتعددة في طاب الحديث ، ثم في زيارته المتكررة للبصرة وللقدس وللشام والتي انتهت بتخليه عن الدنيا . وقد نسب إلى أستاذه مالك بن دينار أيضا وقوفه على الصوامع ومخاطبته للرهبان . ثم إننا نجد أيضا في تراث إبراهيم ابن أدهم الكثير من الإسرائيليات ، ولا شك أنه اطلع عليها ، وعرفها كما عرفها مالك بن دينار . وقد ذهب ماسينيون إلى أن إبراهيم بن أدهم قابل الأسينيين - أي المسيحيين الحقيقيين في فلسطين . وقد قلت من قبل إنهم العيسيون وأن عيسى المسيح كان عضوا في هذه الجماعة أو رئيسها .

وهنا نتساءل : هل عرف إبراهيم بن أدهم العلوم السرية من كيمياء وسيمياء . . . وقد كانت هذه العلوم منتشرة في الكوفة بالذات ، وبالتالي كانت منتشرة في خراسان . إنه كان معاصرا لجابر بن حيان الكيمياء المشهور ، وقد عاش جابر فترة من حياته في خراسان ، حينما كان أبوه داعيا للعباسيين ، وكما تعلم جابر بن حيان الكيمياء - في أول أمره - على حربي الحميري ، تعلم إبراهيم بن أدهم «اسم الله الأعظم» على يد شخصية غامضة هي شخصية داود البلخي . والأخبار عن داود قليلة جدا ولا نعرفها إلا فيما يقصه إبراهيم بن أدهم نفسه لأسلم بن زيد الجهني الزاهد الإسكندراني المشهور . . . يقول إبراهيم بن أدهم «أصبت رجلا بين الكوفة ومكة ، فإذا صلى ركعتين تجوز فيها وتكلم بكلام خفي بينه وبين نفسه ، فإذا عن يمينه حفنة ثريد وكوز ماء فأكل وأطعمني . . . فذكرت ذلك لأسلم بن زيد الجهني فقال له : يا بني - ذاك أخي داود - ووصف من حاله ما أبكى من حوله - ومسكنه من وراء نهر بلخ بقرية يقال لها الصادر ، تفخر على البقاع بكينونة داود فيها . ثم قال : يا بني : ماذا علمك ؟ قلت : علمني اسم الله الأعظم . فقال الشيخ : ما هو ؟ قلت له : إنه لكبير في قلبي أن أطلق به لساني ، فإني سألت الله مرة وإذا رجل يحجزني ، فقال : سل تعطه . فراعني ذلك ، وفزعته منه فزعاً شديداً . فقال : لا بأس ولا روع ، أنا أخوك الخضر . . . إن أخي داود علمك اسم الله الأعظم ، والله يثبت به قلبك ، ويقوى به ضعفك ، ويؤنس به وحشتك ، ويؤمن به روعتك ، ويجدد به رغبتك ويعينك . إن الزاهدين في الدنيا اتخذوا الرضا عن الله لباسا وجهه دثارا ، والأثره شعارا . . . فتفضل الله عليهم»<sup>(٢)</sup> .

(١) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٢٩ / ٣٠ وابن الجوزي : تليس إبليس ص ١٠٢ ، ١٣٥ .

(٢) أبو نعيم : حلية ج ١٠ ص ٤٤ ، وابن الجوزي : صفة ج ٤ ص ١٣٢ ، والقشيري : الرسالة ج ١ ص ٥٢ ، والحريش :

الروض الفائق ص ١٢٤ ، والسلمي : طبقات ص ٣٠ ، ٣١ .

هذه هي الشخصية الغامضة التي علمت إبراهيم بن أدهم اسم الله الأعظم ، ويرى الدكتور كامل الشيبى أن أكسير الكيمياء النفسية ، هو اسم الله الأعظم وهذا الأكسير النفسى أو هذا الاسم هو الذى يحقق كل المعجزات مادية ومعنوية مما لا يصل إليه الأكسير المادى فى تأثيره (١) . وقد لاحظ الدكتور الشيبى أيضا أن إبراهيم بن أدهم ينتمى إلى قبيلة عجل وفى هذه القبيلة من قبل - ظهرت فكرة الاسم الأعظم على يد عجل بن أدهم أيضا هو المغيرة بن سعيد « وأن إبراهيم بن أدهم كما رأينا - كان ينتمى إلى هذه القبيلة (٢) . ولكن هل عرف إبراهيم بن أدهم الكيمياء نفسها ، وبخاصة أنه خدم جعفر الصادق ، وكانت مراكز الكيمياء ودراساتها تنتشر فى الجامع المحيطة بجعفر . ثم إن إبراهيم بن أدهم كان - كما قلنا - معاصرا لجابر بن حيان . ثم هل عرف إبراهيم بن أدهم السحر ، وبخاصة أن أبا نعيم يذكر أنه كان يتصل بالجن ، وأنهم كانوا يعاشرونه ويرحلون معه (٣) . إن الأمر فى حاجة إلى بحث أكثر فى حياة إبراهيم بن أدهم وتتبع أخباره ورحلاته . ولقد كثرت رحلاته وسياحاته . . . إلى العراق وإلى مكة ، إلى الشام ، إلى الثغور ، إلى الإسكندرية ، ثم مات غازيا فى صور ، ودفن فى أراضي الشام ، الأرض التى أحبها ، ورفض أن يعود لخراسان لأجلها ، والذى آمن أن فيها وحدها الرزق المباح الحلال .

وسنحاول أن نعطي صورة تركيبية لآراء الرجل الروحية والتي عاونت أكبر معاونة على تطوير الحياة الروحية فى الإسلام من مرحلة الزهد إلى مرحلة التصوف .

## ٢- الزهد والزهاد . . . ملوك الآخرة

لقد انتقل الفنى الغنى المترف من حياة الغنى والقصور- كما رأينا- إلى حياة الشظف القاسى ، وفعل هذا باختياره . . . ورفض أن يرث مال أبيه بعد موته ، ولقد كره البقاء فى خراسان واندفع إلى بلاد الشام ، هناك حيث تنهى بالعيش الوفير ، وكما يقول هو ويفر يدينه من شاهق إلى شاهق ومن جبل إلى جبل . . . فن يرانى يقول موسوم ، ومن يرانى يقول جمال . . . ولم يلجأ إلى السؤال ، بل كرهه أشد الكره ، واحتقر كل زاهد يسأل فى الطريق ، أو على أبواب المساجد بسأل الناس . بل أخذ يعمل مزارعا وبستانيا وحالا وخطابا (٤) ، ولم يأبه بالحج والجهاد ، وإن كان هو قد حج وجاهد وغزا

(١) الدكتور الشيبى : الصلة ج ٢ ص ٣٣ .

(٢) المصدر : السابق ج ٢ ص ٥٧ .

(٣) أبو نعيم : حلية ج ٧ ص ٣٩٤ / ٣٩٥ .

(٤) القشيري : الرسالة ج ١ ص ٥٢ .

إنه يقول لتلميذه شقيق البلخي : يا شقيق ، لم ينبل عندنا من نبل ، بالحج ولا بالجهاد ، وإنما نبل من عندنا من نبل ، من كان يعقل ما يدخل جوفه - يعنى الرغيفين - من حله (١) ، ولذلك اعتبره الصوفية من بعده أنه أحد كبار رجال الورع في الإسلام . لا بد وأن الرجل قد رأى في خراسان الناس يجمعون «المال الحرام» ويكسدون الذهب والفضة . . . فخرج إلى العراق فرأى في العراق نفس الشيء . . . كما رأى الغزو والحروب ، وما تنتجه آثارها من تقتيل وسبي ، وعاف هذا كله ، فخرج . . . سائحاً . يعمل لأصحابه وينفق - وهو في فقره - عليهم ، بحيث أجمع زهاد الإسلام وصوفيته من بعده - أنه كان أسخى الناس «ما فاق إبراهيم بن أدهم أصحابه بصوم ولا صلاة ، ولكن بالصدق والسخاء» . . . ويقول الأوزاعي «ليس في هؤلاء القراء من هو أفضل من إبراهيم بن أدهم فإنه أسخى القوم» (٢) . وأخذ إبراهيم يضرب لهم أعظم المثل في الإيثار والتواضع . . . يعمل للمسلم كما يعمل للمسيحي ، ويخدم أصحابه ، باع دابته لكي ينفق عليهم في مرضهم ، ثم يحملهم على ظهره فراسخ في الطريق . . . ثم يأوى هو وهم . . . إلى العراء أو في الطريق البارد ، ويقذف بنفسه أرضاً . . . في اليوم الحار . . . ويشرب بيده من ماء النهر ولا يأبه بمجوع ولا عطش . وإذا ما اشتد به الأمر ، كما حدث له ولخادمه إبراهيم بن بشار ، ولم يكن معها مال ولا متاع ولا طعام ولا شراب ، واغتم الخادم ، أعلن له إبراهيم بن أدهم أنهم ملوك الآخرة «وأنهم يسعون وراء «محبوحة الجنة الباقية ، إنهم في طاعة الله الدائمة «يا إبراهيم بن بشار ماذا أنعم الله تعالى على الفقراء والمساكين من النعم والراحة في الدنيا والآخرة ، ملوك الدنيا أعزة في الدنيا ، أدلة يوم القيامة ، لا تنعم ولا تحزن ، فرزق الله مضمون سيأتيك ، نحن والله الملوك الأغنياء ، نحن الذين قد تعجلنا الراحة في الدنيا ، لا نبالي على أي حال أصبحنا وأمسينا ، إذا أطعنا الله عز وجل «بل إن الملوك وأبناء الملوك ، لو علموا ما هم فيه من سعادة لحاربوهم عليهم «لو علم الملوك وأبناء الملوك ، ما نحن فيه من السرور والنعم ، إذا خاللدونا على ما نحن فيه بأسيا فهم أيام الحياة على ما نحن فيه من لذة العيش ، وقلة التعب» (٣) . هذا هو الملك الزاهد ، عند إبراهيم بن أدهم خلى الببال من كل مطالب الحياة ، يسير في الدنيا خاضعاً متذللاً ، متشوقاً نحو أمل أعظم ، غارقاً في هذا الأمل الكبير . هو والله فقط ، وكثيراً . . . ما كان يرغز وهو يعمل .

اتخذ الله صاحباً \_\_\_\_\_ ودع الناس جانباً . . .

والملك الزاهد عنده لا بد وأن يعمل . . . وفي أثناء الحصاد . . . في شهر رمضان . . . قيل له :

(١) أبو نعيم : حلية ج ٧ ص ٣٦٩ - ٣٧٠ .

(٢) نفس المصدر : ج ٧ ص ٣٩١ - ٣٧٢ .

(٣) أبو نعيم : حلية ج ٧ ص ٣٧٠ ، ٣٧١ .

يا أبا إسحق ، لو دخلت بنا إلى المدينة ، فتصوم العشر الأواخر بالمدينة لعلنا ندرک ليلة القدر ، فقال : أقيموا ههنا ، وأجيدوا العمل ولكم بكل ليلة . . ليلة القدر<sup>(١)</sup> « فاعمل عنده خير من التعب - من الصلاة ومن الصيام ، ومن انتظار ليلة القدر . وغاية العمل عنده هي الحصول على رزق حلال بل إنه يقول « أطلب مطعمك ، ولا عليك أن لا تقوم بالليل وتصوم النهار »<sup>(٢)</sup> .

والملك الزاهد عنده لا بد وأن يظأطئ الرأس للناس جميعاً ، إنه في طلب ما يجهلون ، فلا يابه بمساءتهم ، بل يدعوهم ويعنو ويتقبل ما يقدمون له من أذى . وقد ضربه أحد الجنود ظلماً على رأسه بالسوط ، فظأطأ إبراهيم رأسه وقال : اضرب رأساً طالما عصى الله<sup>(٣)</sup> . بل إنه يذكر أنه ماسر في إسلامه إلا ثلاث مرات « مرة كنت في سفينة ، وفيها رجل مضحك » كان يقول كنا نأخذ البلح في بلاد الترك هكذا . . وكان يأخذ شعر رأسي ويهزني ، فيسرفني ذلك لأنه لم يكن في السفينة أحد أحقر منه في عينه مني . . والأخرى كنت عليلاً في مسجد فدخل المؤذن وقال اخرج . . فلم أطق . فأخذ برجلي وجرني إلى خارج المسجد . والثالثة : كنت بالشام وعلى فرو فنظرت فيه ، فلم أميز بين شعره وبين القمل لكثرة . . . فسرفني . . . ثم قال : ما سررت بشيء كسروري أني كنت يوماً جالساً فجاء إنسان ومال على<sup>(٤)</sup> . . ويمر سالم الخواص في يوم مطير على رصيف أنطاكية ، فيبصر إنساناً نأماً ، فلما قرب منه ، كشف النائم رأسه ، فإذا هو إبراهيم بن أدهم في عباءة : فقال إبراهيم « يا أبا محمد طلب الملوك شيئاً ، ففاتهم وطلبناه ، فوجدناه ، ما يجوز حمى كسالي هذا .

هذا هو الملك الزاهد يعيش في الدنيا - على اختيار الله ، حيث وضعه الله ، في الحر والبرد ، وفي البادية ، في الجبل في البحر . . . إنه خير من الملوك « إذا بات الملوك على اختيارهم ، فبت على اختيار الله لك وارض به » .

والملك الزاهد عنده : . . . سيطر على اللذات كلها : منع نفسه أربعاً : لذة الماء ، والحمامات . . . والحذاء . . . والملح الجيد . . . فيسير عطشاناً : وعليه قبص واحد ، وحاف القدمين . . . ويتأني عن طيب الطعام<sup>(٥)</sup> بل إنه يأكل الطين إن لم يجد طعاماً . . . ولقد رآه أبو معاوية الأسود (وقد اعتبر إيمان صورة أخرى من أويس القرني « يأكل الطين عشرين يوماً . . . بل إن إبراهيم كان يتمنى لو عاش على الطين فقال لأبي معاوية - لولا أن أخاف أن أعين على نفسي ، ما كان لي

(١) نفس المصدر : ج ٧ ص ٣٧٨ .

(٢) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٣١ .

(٣) نفس المصدر : ج ٧ ص ٣٧٩ ، والقشيري : الرسالة ج ١ ص ٥٢ .

(٤) القشيري : الرسالة ج ١ ص ٢٤٧ .

(٥) أبو نعيم : حلية ج ٧ ص ٣٩٤ .

طعام إلا الطين حتى ألقى الله عز وجل . وأصابته إِبْرَاهِيمَ بِمَجَاعَةٍ فَكَشَّتْ أَبْيَامًا يَبِيلُ الرَّمْلِ بِالمَاءِ فَيَأْكُلُهُ (١) .  
 والملك الزاهد عنده . . أسخى الناس ، حتى في فقره وفي مجاعته . . . يعطى ما يصل إليه - حتى  
 عن طريق الورع - وهو في أشد الفاقة . وكذلك كان « السلطان إبراهيم بن أدهم » أسخى الناس .  
 وأكثرهم إيثارا . ولقد وضح مذهبه في محاورته لتلميذه شقيق البلخي في أول مقابلة له . فقد سأل  
 إبراهيم شقيقا : على أى شيء أصلتم أصلكم ؟ فقال شقيق : أصلنا على أنا رزقنا أكلنا ، وإذا  
 منعنا صبرنا . فقال إبراهيم : هكذا تفعل كلاب بلخ . فقال له شقيق . فعلى ماذا أصلتم ؟ قال :  
 أصلنا على أنا إذا رزقنا آثرنا ، وإذا منعنا شكرنا وحمدنا» وكان الإيثار فعلا سنة إبراهيم بن أدهم ، كما  
 كان الشكر والحمد في أشد فاقته ومجاعته وعطشه دليله في الحياة . . وقد قام شقيق فجلس بين يدي  
 إبراهيم بن أدهم وقال له : يا أستاذ : أنت أستاذنا (٢) . وحين قدم عليه شقيق من خراسان مرة ثانية  
 سأله : كيف تركت الفقراء من أصحابك فقال : تركتهم : إن أعطوا شكروا وإن أعطوا آثروا (٣) .  
 فكان إبراهيم إذن معلم الإيثار في العالم الإسلامي .

وأخيراً . . . إن الملك الزاهد ، عنده ، السلطان الغازي إبراهيم بن أدهم ، زهد في الحلال ،  
 فرفض أن يأخذ أسهمه ونفله . . في الغزاة الأخيرة . . التي مات بعدها « فلم يأخذ أسهما ولا نفلا ،  
 وكان لا يأكل من متاع الروم . . يجيئ بالطرائف فلا يأكل منه » ولكنه يعلن « هو حلال ، ولكنني أزهّد  
 فيه ، وكان يأكل مما حمل معه ، وكان يصوم » . ولقد اعتبر صاحب القوافي إبراهيم بن أدهم  
 « إمامنا في العلم » ويذكر أنه قسم الزهد إلى ثلاثة أصناف « زهد فرض ، زهد فضل ، وزهد سلامة  
 فالفرض هو الزهد في الحرام ، والفضل الزهد في الشبهات

### ٣ - الآراء السيكولوجية الصوفية لإبراهيم بن أدهم :

حين انتهى إبراهيم بن أدهم من مرحلة الزهد ، ووصل إلى مرحلة الرضا وهي كما يقول نيكلسون ،  
 مرحلة بين الزهد والثيوزوفيا - أى المعرفة ولكننا نظفر من إبراهيم بن أدهم بلمحات جميلة في علم إرادة  
 النفس ومعالجتها ، لقد رأى تقلبات النفس ، أهواء ونزعات . . وأخذ يجالده داخليا وهو نفسه يقول :

(١) نفس المصدر: ج ٧ ص ٣٨١ .

(٢) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٣٧ / ٣٨ .

(٣) أبو طالب المكي : قوت ج ١ ص ٤٠٥ .

(٤) نفس المصدر: ج ٧ ص ٣٨٨ .

(٥) نفس المصدر: ج ١ ص ٤٤ ، وأبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٢٦ .

« ما قاسيت شيئا من أمر الدنيا ، أشد على من نفسى ، مرة على ومرة لى ، وأما أهوائى--فقد والله-استعنت بالله عليه ، فأعانتى . واستكفينته سوء مغالبتة فكفانى ، فوالله ما أسى على ما أقبل من الدنيا ، ولا ما أدبر منها» (١) . . . كان الزهد إذن هو المرحلة الأولى عنده ، ثم أعقبها تلك المرحلة النفسية ، القلق العنيف ، ولذلك يقول على بن بكار « لم يكن إبراهيم بن أدهم كثير الصلاة ، ولكنه صاحب تفكير ، يجلس ليله يتفكر » (٢) ويذكر إبراهيم بن أدهم « أشد الجهاد الهوى ، ومن منع نفسه هواها . فقد استراح من الدنيا وبلائها ، وكان محفوظاً ومعافى من أذاها » (٣) فالنفس إذن هى سبب الهوى ، هواها وهوى الجسد ، وهنا يدعو لأمره فى تاريخ الزهد إلى النظر فى مرآة التوبة « إنك إذا أدمت النظر فى مرآة التوبة ، بأن لك شين قبج المعصية » (٤)

وجهاد النفس قاس ، حتى يصل الإنسان أو السالك إلى درجة « الصالحين » ولا بد له أن يجوز ست عقبات : أولها : أن تغلق باب النعمة ، وتفتح باب الشدة .  
وثانيها : أن تغلق باب العز ، وتفتح باب الذل .  
وثالثها : أن تغلق باب الراحة ، وتفتح باب الجهد .  
ورابعها : أن تغلق باب النوم ، وتفتح باب السهر .  
وخامستها : أن تغلق باب الغنى ، وتفتح باب الفقر .  
وسادستها : أن تغلق باب الأمل ، وتفتح باب الاستعداد للموت (٥) .

هذه هى المجاهدة ، التى لا يفتح لكل شىء من الطريقة بدونها . ولقد عانى إبراهيم بن أدهم كل هذه العقبات ويذكر نيكلسون أن إبراهيم بن أدهم هنا يقترّب من فكرة المعركة ، فاجتياز العقبات الست إنما هى للوصول إلى- معرفة الله-معرفة ذوقية . ولكنه يحاول أن يصلها بالفكرة الغنوصية عن الأبواب السبعة التى لا تفتح للنفس- وهى سائرة فى طريقها إلى الخلاص- إلا إذا حصلت المعرفة أو العلم اللدنى ، واجتازت الحراس القائمين على هذه الأبواب واحدا واحدا . ويرى أن كلمة الحراس قد استكملت فيها بعد استكمالها مجازيا للدلالة على شهوات النفس : الهوى والجسد ونحوهما . ويقول نيكلسون « وليس عندى من شك فى أن المذهب الغنوصى- يعدها إصابة من التغيير والتحوير على أيدي مفكرى اليهودية والمسيحية ، وبعد بالنظريات اليونانية ، كان من المصادر الهامة التى أخذ عنها

(١) أبو نعيم حلية ج ٧ ص ٣٨ .

(٢) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ١٧ .

(٣) نفس المصدر : ج ٨ ص ١٨ .

(٤) نفس المصدر : ج ٨ ص ٢٦ .

(٥) القشيري : الرسالة ج ١ ص ٥٣ ، ٢٦٦ .

رجال التصوف الإسلامي» (١) ولا شك أن الفكرة الغنوصية هذه قد أثرت في بعض صوفية الإسلام في القرنين الثالث والرابع المجريين وما بعدهما ، فهل كانت هذه العقبات الست هي أيضا غنوصية ، وهل وصل المذهب الغنوصي إلى إبراهيم بن أدهم ، وقد صيغ في هذه الصورة الإسلامية ، إن التأمل في هذه العقبات الست لا يوحي أبداً بوجود مصدر خارجي لها ، وإن كان من المرجح أن إبراهيم بن أدهم عرف فكرة الأبواب السبعة ، وبخاصة أنه عرف فكرة غنوصية أخرى هي فكرة الاسم الأعظم ، ثم إنه أيضا اتصل بالرهبان ، وتعلم «المعرفة» من الراهب سمعان (٢)

على أية حال : حين وصل إبراهيم بن أدهم نفسه إلى مرتبة الصالح . . اجتياز العقبات الست اتجه إلى القلب . . . ورأى أن القلب يحجب بثلاثة أعطية . . «قد حجبت قلوبنا بثلاثة أعطية ، فلن يكشف للبعد اليقين ، حتى ترفع هذه الحجب : الفرح بالموجود ، والحزن على المفقود ، والسرور بالمدح . . .» (٣) ويقف عليه رجل صوفي ويسأله «يا أبا إسحق لم حجبت القلوب عن الله . قال : لأنها أحببت ما أبغض الله ، أحببت الدنيا ، ومالت إلى دار الغرور واللهو واللعب ، وتركت العمل لدار فيها حياة الأبد في نعيم لا يزول ولا ينفد ، خالداً مخلداً في ملك سرمد ، لا نفاذ له ولا انقطاع» (٤) ولا يتم الورع إلا «بتسوية كل القلق من قلبك» (٥) ويذكر «القلب المعاین للآخرة» «ونصر القلب» الذي يطفى بصر العين الناظرة لحب الدنيا ، فيتعذر حرامها ويحارب شهواتها وكثرة النظر إلى الباطل تذهب بمعرفة الحق من القلب» وهنا سكت عن الناس ، «وأنس بالله» (٦) وانفتحت له عوالم القلبية ، فلجأ الناس إليه للدعاء والابتهاال . يقسمون به ، فيقسم على الله ، في العاصفة في البحر ، في البادية والأسود (٧) حوله ، فتهدأ العاصفة بدعائه وتأنس الأسود بلمساته . . وكثرت حوادث كراماته ، وهنا دعا «في ليلة ظلماء ، فيها مطر شديد . . فخلا المطاف فدخلت الطواف . . .» دعا في البيت الحرام ، والبيت خال «اللهم اعصمني . . اللهم اعصمني» وسمع هاتفاً يقول «يا ابن أدهم : أنت تسألني العصمة ، وكل الناس يسألوني العصمة ، فإذا عصمتكم فمن أرحم» (٨) .

(١) نيكلسون : في التصوف الإسلامي وتاريخه ص ١٧ ، ١٨ .

(٢) أبو طالب المكي : توت القلوب ج ١ ص ٥٠٨ وأبو نعيم : حلية ج ٨ ص ١٣ .

(٣) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ١٣ .

(٤) نفس المصدر : ج ٧ ص ٨٦ و ص ٢٢ .

(٥) نفس المصدر : ج ٨ ص ١٩٦ .

(٦) نفس المصدر : ج ٨ ص ٢ .

(٧) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٢٠ .

(٨) الفشيري : الرسالة ج ١ ص ٢٣٢ .

## ٤- المحبة :

أنس إبراهيم بن أدهم بالله ، ولم يعد الحجاب ولا الغطاء ، لقد زال الأول ورفع الثاني . . .  
 فبدأ يتكلم عن الحب وإبراهيم بن أدهم « أحد المحبين » فيما يقول أبو طالب المكي . ونقول مرة ثانية به  
 كان أحد المشتاقين . . وكانت له أماكن من المحبة رفيعة ، ومكاشفات في القرب عليه (١) . « ليس من  
 أعلام الحب أن تبغض حبيبك (٢) . ويقرر أن الجنة لا تنال إلا بالطاعة وأن مرضاة الله لا تنال إلا  
 بالمعصية والولاية لا تنال إلا بالمحبة (٣) ويضع مرة ثانية مراتب الحياة الروحية للناس « إن الله تعالى قد  
 أعد المغفرة للأولين ، وأعد الرحمة للتوابع ، وأعد الجنة للخائفين ، وأعد الجوار للمطيعين ، وأعد  
 رؤيته للمشتاقين » وهنا يتكلم أيضا عن الرؤية « وقد ورث أهل المحبة من محبوبهم « النظر بنور الله » . بل  
 بدأت المفاجأة . إنه يريد تسكين قلبه برؤية الله « يا رب إن كنت أعطيت أحدا من المحبين لك ما  
 تسكن به قلوبهم ، قبل لقائك فاعطني ذلك . فلقد أضر بي القلق » فرأى في المنام أن الله أوقفه بين  
 يديه . . وقال : يا إبراهيم أما استحييت مني أن تسألني ما يسكن به قلبك قبل لقائي . وهل تسكن  
 الشقاق قبل لقاء حبيبي ، أم هل يستروح المحب إلى غير مشوقه . قلت يا رب تهت في حبك ، فلم أدر  
 ما أقول . . فاغفر وعلمني ما أقول . فقال قل « اللهم ارضني بقضائك . وصبرني على بلائك ،  
 وأوزعني شكر نعمائك » .

ولقد ورث إبراهيم بن أدهم تقاليد نظرية « المحبة البصرية » وعرف مدرسة رابعة العدوية . . وها هو  
 يسير في نفس طريق رابعة فيرى أن غاية العابدين من الله لا سكنى الجنة ، وإنما ألا يعرض بوجهه  
 الكريم عنه . . بل يقول صراحة « اللهم إنك تعلم أن الجنة لا تزيد عندي جناح بعوضة . إذا أنت  
 آنتني بذكرك أو رزقتني حبك ، وسهلت علي طاعتك فأعط الجنة لمن شئت (٤) ويقول مرة  
 ثانية « اللهم إنك تعلم أن الجنة لا تزيد عندي عن جناح بعوضة فما دونها . إذا أنت وهبت لي حبك ،  
 وآنتني بمدآكرتك ، وفرغني للتفكير في عظمتك (٥) . بل إنه يذكر أن شرط الولاية ألا ترغب في شيء  
 من الدنيا والآخرة (٦) وتفرغ النفس لله ، ويفسر الآية « فهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم

(١) أبو طالب : قوت القلوب ج ٢ ص ١١٥ ، ١٢١ .

(٢) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٢٤ .

(٣) نفس المصدر : ج ٨ ص ٢٥ .

(٤) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٣٤ - ٣٥ .

(٥) نفس المصدر : ج ٨ ص ٣٦ .

(٦) القشيري : الرسالة ج ٢ ص ٥٢١ ، ٥٢٢ .

سابق بالخبرات «أما ظالم نفسه فهو مضروب بسوط الندامة مقتول بسيف الأمل مضطجع على باب العقوبة . . . وأما المقتصد فمضروب بسوط الندامة مقتول بسيف الحسرة مضطجع على باب العفو . . . أما السابق فمضروب بسوط المحبة مقتول بسيف الشوق ، مضطجع على باب الكرامة (١) . هذا المحب هو ملك أو كالمملك ، خادم الله . . . إنه في مقام غريب . . . إذا خلوت بأنسيك فشق فيصك (٢) وهذا مقام سبق به إبراهيم بن أدهم . . . الصوفية المتأخرين . . . مقام خلع العذار .

### مواقف المحب : . . .

وحين شق القميص ، بدأت السياحة . . . بعيداً عن الناس . . . على قم الجبال ، وفي بطون الأودية . . . إنه يخاف الفوت ، إنه يتطلب الحبيب ، إنه انتقل من درجة أي «من مقام» إلى مقام حتى انتهى إلى هذا «المقام» . . . إنه يريد أن يسمع الصوت الإلهي . . . كما استمع إليه محمد وموسى . . . فسمع قائلاً يغني بجواره

كل شيء لك مغفور سوى الإعراض عني  
قد وهبنا منك مافات . . . بقي ما فات مني

كان هنا في مقام الحضرة ، فاضطرب وغشى عليه ، كما صعق موسى . . . فلم يفق يوماً وليلة . . . ثم سمعت النداء من الجبل . . . يا إبراهيم «كلَّ العبد» . . . فكنت عبداً فاسترحمت «أبي» كما يسترح صاحب القوى - لا يملك إلا واحداً فتكون له عبداً حراً مما سواه ، ولا تملك شيئاً ، فإن الأشياء في خزائنه مليكها ، فلا تملكها فتحجيك عن مالك ، وتأسرك بمقدار ما ملكتها (٣) هذه هي الحرية الكبرى عند الزاهد الصوفي ، ألا تملك شيئاً ، ألا تكون عبداً لشيء في الدنيا ، داخلها في المشيئة المطلقة ، في الأمر المطلق ، في القدرة المطلقة (٤) .

وأخيراً نرى إبراهيم بن أدهم قد حقق آراءه التي اتخذها في أول حياته - والتي وضعها على لسان الخضر «إن الزاهدين في الدنيا - قد اتخذوا الرضا عن الله لباساً ، وجهه دناراً ، والأثره له شعاراً» (٥) والتي ذكرها لشيخه أسلم بن يزيد الجهني الزاهد الإسكندراني ، فكانت حياته بين الرضا والإيثار والحب ، وكان الحب تاجها .

(١) القشيري : الرسالة ج ٨ ص ٣٨ .

(٢) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٣٦ .

(٣) أبو طالب المكي : قوت ج ٢ ص ١١٥ - ١١٦ .

(٤) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٣٦ .

(٥) السلي : طبقات ص ٣٤ .

## ٥- شيعية إبراهيم بن أدهم

ذهب الخوانساري من الأقدمين والدكتور كامل الشيبى من المحدثين إلى أن إبراهيم بن أدهم كان شيعياً . وتتضح شيعته من كونه من قبيلة عجل . وكانت هذه القبيلة إحدى مراكز التشيع العالى ، علاوة على أن إبراهيم بن أدهم وصف بمعرفة الاسم الأعظم « وأن فكرة الاسم الأعظم إنما ظهرت أول ما ظهرت على يد شيعى غال من قبيلة عجل وهو المغيرة بن سعيد . . ثم إن الخوانسارى يذكر أن إبراهيم بن أدهم قد خدم الباقر وتلمذ على جعفر الصادق (١) أما عن خدمته للباقر فيقول : وذكر صاحب مجالس المؤمنين أنه (أى إبراهيم بن أدهم) انتهى في أيام سياحته إلى خدمة مولانا الباقر بمكة المشرفة ، وأخذ عن بركات أنفاسه الشريفة ما أخذ ، ويؤيده أيضا . . أن إبراهيم هذا يروى عن جماعة كبيرة منهم محمد بن على الباقر وسليمان الأعمش ، وفي بعض مصنفات الأصحاب أنه سمع من سفيان الثورى وسليمان الأعمش ومالك بن دينار ومن في طبقتهم من النساك . . ويذكر الخوانسارى أيضا أن إبراهيم بن أدهم قدم الكوفة على عهد المنصور وقدمها جعفر الصادق أيضا . . وخرج جعفر يريد الرجوع إلى المدينة ، فشيعه العلماء وأهل الفضل من الكوفة ، وكان ممن شيعه سفيان الثورى وابن أدهم ، فتقدم المشيعون له ، فإذا هم بأسد على الطريق ، فقال لهم إبراهيم : قفوا . . حتى يأتى جعفر ، فنتظر ما يصنع . . فجاء ، فذكروا له الأسد ، فأقبل حتى دنا منه ، وأخذ يأذنه ، حتى نحاه عن الطريق ، ثم أقبل عليهم فقال : أما أن الناس لو أطاعوا الله حق طاعته ، لحملوا عليه أنفاهم . ثم يذكر الخوانسارى أنه أدرك زمن سيدنا السجاد عليه السلام (٢) . . كما أن إبراهيم بن أدهم دخل في السلاسل الصوت ذات الصبغة الشيعية : ومن أهمها الطريقة الكميلية نسبة إلى كميل بن زياد والطريقة الأدمية . كل هذا دعا العلامة العراقى الممتاز الدكتور كامل الشيبى إلى وصل إبراهيم بن أدهم بالشيعية ، وعرض حياته وفكره كمظهر للصلة بين التصوف والتشيع ولا شك أن زهاد الإسلام وصوفيتهم تأثروا جميعا خطى على بن أبى طالب في زهده وفي حياته الروحية . وكان بينهم وبينه وشائج روحية خطيرة . ولا شك أيضا أن الزهاد في عصر الباقر لجأوا إليه وإلى ابنه وبخاصة أن الباقر والصادق كانا من محدثي الإسلام الكبار ، وكان هؤلاء الزهاد محدثين أولا وبالذات . . كل هذا كان يدعو إبراهيم بن أدهم وسفيان الثورى والفضيل بن عياض وغيرهم للاتصال بأئمة أهل البيت أو خدمتهم إن استطاعوا إلى ذلك سبيلا ولكن ليس معنى هذا إطلاقاً أنهم تشيعوا - أى بمعنى موالاته الإمام ،

(١) الخوانسارى : روضات ص ٣٠ .

(٢) الدكتور الشيبى : صفة ج ٢ ص ١٣٣ - ١٢٤ .

والدعوة له ، والجهاد في سبيله . لم يكن هذا غاية الزهاد ، كان غاية الزهاد ، الخروج من الدنيا كلية ، وهجران آمالهم فيها ، من أهالي البشر جميعا . ولم يتحوصوا في أمر الفريقين ، بل بكى إبراهيم ابن أدهم مرة حين سأله سائل عن رأيه في علي ومعاوية وأبى أن يجيب . وأما أنه كان عجليا ، وأنه تأثر بالتشيع العالی عن هذا الطريق ، فليس هناك ما يثبت أبدا أنه فعل هذا . وكان هناك أيضا عدد من العجلين الزهاد- كمورق العجلى- ولم يكن شيعياً . أما كون وصفه إبراهيم بن أدهم بمعرفة الاسم الأعظم ، وأن أول من عرف هذا الاسم كان عجليا شيعيا غالبا ، فلا ينهض أيضا دليلا على كونه شيعيا . كان الزهاد والصوفية يتجهون نحو هذه الأفكار الغامضة ويعرفونها وينتدروسونها . وأخيرا- لا نستطيع أن ننكر الصلة بين التشيع والتصوف إجمالا . وأن الآراء والأفكار لتسرى . ولكن هذا شيء ، وكونه شيعيا بالمعنى المتعارف . ولقد انتهى الخوانساري إلى هذا فقال عن إبراهيم بن أدهم « هذا وقد علم بذلك كله أنه أدرك صحبة ثلاثة من أئمة أهل البيت . وإن لم يكن ذلك بمجد للمرء إلا بعد إتيان الله من أبواب محبتهم بقلب سليم ، أو الأخذ معهم في طريقي الإطاعة والتسليم »<sup>(١)</sup> .

#### ٦ - تلامذة إبراهيم بن أدهم :

كانت مدرسة إبراهيم بن أدهم مدرسة كبيرة ، كان الكثير منهم من أقرانه كأبي إسحق الفزارى وعلي بن بكار ومخلد بن الحسين وأبي يوسف الغسولى . ثم اتصل به الصوفى الحراسانى الكبير شقيق بن إبراهيم البلخى ، ويبدو أن اتصاله به إنما كان في مكة ، وقد اعترف له بالولاية وتلمذ عليه . وسنفرده لشقيق فصلا طويلا في الجزء التالى لهذا الجزء من سلسلتنا « نشأة الفكر الفلسفى في الإسلام » ولكننا نود أن نتكلم هنا عن التلاميذ الصغار لإبراهيم بن أدهم .

أما أول هؤلاء : فهو إبراهيم بن بشار : الحراسانى الزاهد . وقد ذكره الذهبي فقال : صدوق ما تكلم فيه أحد- روى عن إبراهيم بن أدهم وحجاده بن زيد<sup>(٢)</sup> كما ذكره أيضا صاحب تاريخ بغداد . فقال : أبو إسحق الحراسانى الصوفى ، خادم إبراهيم بن أدهم ، ويذكر أنه « قدم بغداد وحدث بها »<sup>(٣)</sup> ويذكر أبو نعيم « إبراهيم بن بشار الصوفى الحراسانى خادم إبراهيم بن أدهم »<sup>(٤)</sup> .

(١) الخوانسارى : روضات ص ٣٠ .

(٢) الذهبي : ميزان الاعتدال ج ١ ص ٢٤ .

(٣) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ١٢ ص ٧٥ .

(٤) أبو نعيم : حلية ج ٧ ص ٣٧ .

ونلاحظ أن كلمة «صوفي» أطلقت على خادم إبراهيم بن أدهم ، ولم نجد نصاً واحداً من التصوص القديمة يطلق على إبراهيم بن أدهم هذا اللقب ، نرى فقط أن بعض الصوفية أتوا إليه ، وسألوه عن أمراض القلوب . ولكن نرى أن كلمة صوفي أضيفت إلى خادمه وتلميذه كما نلاحظ ثانياً أن إبراهيم بن بشار كان محدثاً ثقة ، وهذا يدل على ميزة مدارس الزهد الأولى أنهم كانوا أولاً وبالذات محدثين . وقد صحب إبراهيم بن بشار شيخه في تجواله وترحاله وسياحاته ، وأخذ عنه الكثير ، وترك لنا أخباره .

أما التلميذ الثاني من تلامذة إبراهيم بن أدهم فهو أبو إسحق إبراهيم الهروي المعروف بسننه . وقد صحب إبراهيم بن أدهم ، ثم عاصر أبا يزيد البسطامي .

وقد طور إبراهيم الهروي مذهب أستاذه . . فكان هو وشقيق من أوائل من تكلموا في التوكل . ويذكر أبو نعيم أن أهل هراة كانوا «بعظومونه» فحج متجرداً - ودعا الله في تلك الحجة : اللهم اقطع رزقي عن أموال أهل هراة وزهدهم في . «فكانت الأيام تمضي ولا يطعم فيها شيئاً . فإذا مر بسوق هراة . قال الناس : هذا الفاعل ينفق في كل يوم ليلة كذا وكذا درهما» (١) أي أنه لم يعد في حاجة إلى أموالهم . . . وتكلم إبراهيم الهروي عن رياء النفس وكيف أنه بقي بالبادية أياماً وأياماً . لا يأكل ولا يشرب ، ولا يشتهي شيئاً . . فقال «عارضتني نفسي أن لي مع الله رتبة» فقابل زاهداً زمناً مطروحاً في البادية «يا إبراهيم . ترائي الله في شرب» فنظر إبراهيم فرأى شخصاً فقال له «قد كان ذلك» فقال الرجل الغريب «تدرى كم لي ههنا لم أكل ولم أشرب ، ولم أشته شيئاً ، وأنا زمن مطروح ؟ قلت الله أعلم . قال : ثمانين يوماً وأنا أستحي من الله أن يتولى خاطري ، ولو أقسمت على الله أن يجعل مذبح الشجر ذهباً لجعله ، فكانت بركة رؤيته تنبئها لي ، ورجوعاً إلى حالتي الأولى» .

وفسر آراء أستاذه في الدعاء ، ونوع الدعاء المستجاب فقال : من أراد ألا يحجب دعاؤه من السماء ، فليتعاهد من نفسه خمسة أشياء : أولاً : أن يكون أكله غلبه ، ألا يأكل إلا ما لا بد منه ، ولباس عليه لا يلبس إلا ما لا بد منه ونومه عليه ، لا يتام إلا لا بد منه . وكلامه عليه : لا يتكلم إلى لا ما لا بد منه . والخامس أن يكون متضرعاً ، حافظاً لإرادته دائماً ، حافظاً لأعضائه دائماً وتساءل نحن هل هذه البدايات هي «بد العارف» التي ستظهر في أجيال التصوف من بعده . أما طريق الجنة عنده فهو على ثلاثة أشياء : أولاً . سكون القلب بموعود الله . والثاني : الرضاء بقضاء الله . والثالث . إخلاص العمل في جميع التوافل .

ثم وضع درجات سبع ، كما وضع أستاذه من قبل درجات ست : يقول : من أراد أن يبلغ

الشرف كل الشرف ، فليخسر سبعا على سبع ، فإن الصالحين اختاروها ، حتى بلغوا أستانم الخير :  
 أولها : أن يختار الفقر على الغنى والجوع على الشبع ، والدون على المرتفع ، والذل على العز  
 والتواضع على الكبر ، والحزن على الفرح والموت على الحياة . . ثم هناك ثلاثة لا بد أن يصيها السالك  
 حتى ينال الشرف في الدنيا والآخرة : أولها : فتح القلب - فيكون مأوى الذكر والمناجاة - والثاني :  
 غنمه البر ، فكل بر يرزقه الله ، يراه أنه غنيمته له . فيتقبله بالمنة ويحفظه بالخوف وتتممه بالخشية ،  
 ويسلمه بالإخلاص ، ويحفظه بالصبر . والثالث : يجد الظفر على عدوه ، ليستقيم على طاعة الله ،  
 حتى يرزقه الظفر على عدوه<sup>(١)</sup> . وكأننا في كل هذا بإبراهيم بن أدهم يتكلم .  
 « ثم كان هناك من تلامذته الكثيرون من عباد العواصم والشعور » . . كما قلنا - مخلد بن الحسن  
 وعلى بن بكار وغيرهما . أثر فيهم إبراهيم بن أدهم أكبر تأثير . واتخذوه مثلا أعلى لهم ، فخرجوا  
 يتلمسون الرزق كما تلمس ، ويسبحون كما سح . . كان إبراهيم بن أدهم أسطورة حتى في زمانه . .  
 وقد أدى هذا وخلال الأجيال المتعاقبة إلى ابتداء أسطورة إبراهيم بن أدهم .

#### ٧- إبراهيم بن أدهم الأسطورة :

أصبح إبراهيم بن أدهم قصة رومانتيكية في الأدب الإسلامي . إن هذا السلطان الخراساني الذي  
 ساح وهام بين الجبال والوهاد والأودية في صورة بوذا ، وقد تحلى عن حجاب القصر ، ومر بين حجاب  
 النفس ليصل إلى المحبة الإلهية غارقا فيها ، كما غرقت أستاذته رابعة . لقد أصبح هذا السلطان سلطان  
 العارفين واتبعه حيا وميتا الدراويش في رقصاتهم . . والسائحون في سياحاتهم . . والفقراء في خرقهم .  
 لقد ترك بستان قصره . وعاش في بستان الله ، وكان هذا البستان الأخير عنده بستان السلاطين  
 الحقيقي . وأصبح السلطان إبراهيم أسطورة التصوف لدى الأتراك والهنود والملايو وجاوه وحضر موت .  
 وحقا لقد اكتشفت مخطوطات متعددة عن سيرة « السلطان إبراهيم بن أدهم في اللغات التركية  
 والهندستانية والملايوية .

• • •

وبعد : فقد تجاوزنا الصفحات المقررة لهذا الكتاب . ولهذا فإننا سنتوقف عند إبراهيم بن أدهم لكي نتابع الحياة الروحية في الإسلام في الجزء الرابع من سلسلتنا عن نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام فنكمل بحث هذه الحياة لدى مدرسة خراسان والمدارس الأخرى التي لم نتناولها في هذا الجزء ، وهي مدارس الجزيرة العربية ومدرسة مصر ثم مدارس المغرب - وذلك في القرنين الأول والثاني الهجريين . ثم نتابع حركة التصوف في القرنين الثالث والرابع الهجريين .

والله ولي التوفيق